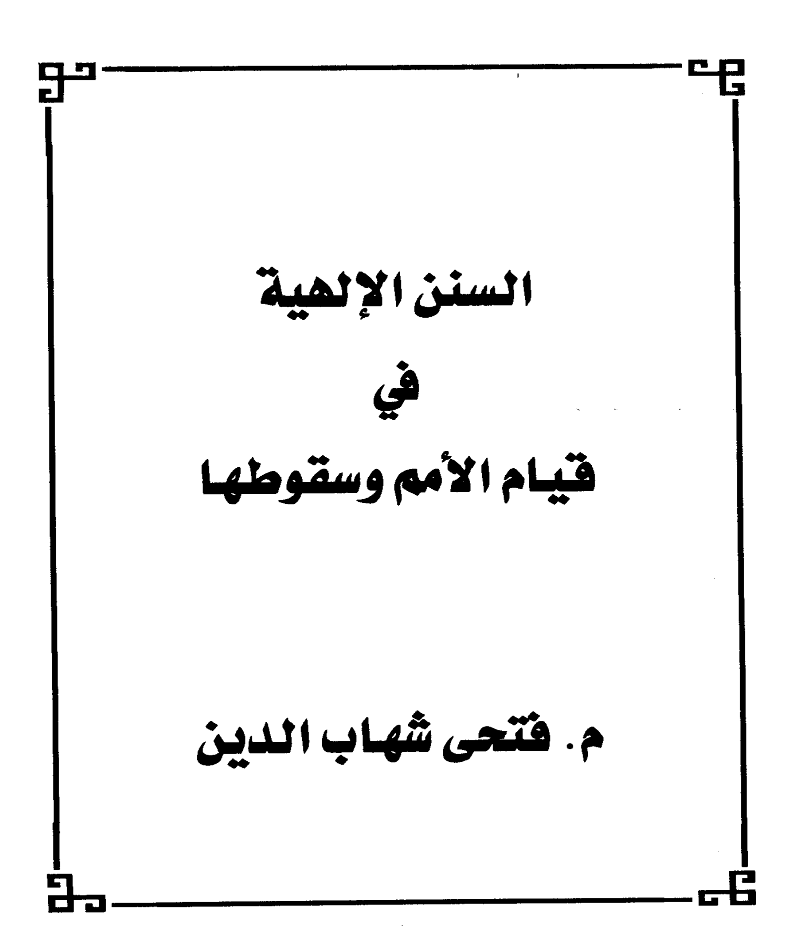


السنن الإلهية
في
قيام الأمم وسقوطها

م. فتحى شهاب الدين

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

شهاب الدين، فتحي
السنن الإلهية في قيام الأمم وسقوطها/ م.فتحي شهاب الدين- ط١ – القاهرة دار النشر للجامعات، ٢٠٠٨.
١١٢ص، ٢٠سم.
تدمك ٣ ٢٦١ ٣١٦ ٩٧٧
١- الإلهيات
أ- العنوان ٢٤١

تاريخ الإصدار: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م
حقوق الطبع: محفوظة للناشر
رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٧٦٩
الترقيم الدولي: ISBN: 977-316-261-3
الكود: ٢/٢٢٣

دار النشر للجامعات

ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨
ت: ٢٦٣٤٧٩٧٦ - ٢٦٣٢١٧٥٣ ف: ٢٦٤٤٠٠٩٤
E-mail: darannshr@link.net

السنن الإلهية
في قيام الأمم وسقوطها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يتساءل كثير من المسلمين اليوم عن الحكمة في تسلط دول البغي والاستكبار على المسلمين **وتحكمهم** بهم وتمكنهم منهم وهل مسلمو اليوم هم المسلمون **الذي وعدهم الله في كتابه** بالنصر والتمكين؟

لقد اقتضت سنة الله **أن تظل** هذه الدنيا تسير بأهلها في تطورها العمراني والمعاشي حتى يأتي وعد الله وتحين الساعة المحددة لزوالها، وإنما شأن المؤمنين بالله القائمين على حدوده مع الأمم الجاحدة بالله المستكبرة على مبادئه وأحكامه بالنسبة لقيادة الدنيا وتعمير الكون وإدارته مثل كفتي ميزان إن رجحت إحداها طاشت الأخرى. فإذا كان المؤمنون بالله صادقين في إيمانهم به أوفياء معه في تنفيذ منهاجه وشرعه جعل الله قيادة الحياة وعمارتها تؤول إليهم وهيأ لهم أسباب العزة والمنعة والنصر من حيث لا يحتسبون وجعل الآخرين تحت سلطانهم. وإذا انقلب المؤمنون فضيعوا شرائع الله وأحكامه واستهانوا بأنظمته وحدوده وشاع فيهم المنكر وغاب بينهم المعروف وانتشر الظلم والفساد جعل الله قيادة الحياة وعمارتها إلى الأمم الأخرى حتى وإن كانت كافرة جاحدة وسلطها عليهم بالقهر والإذلال. ورحم الله الرعيل الأول من هذه الأمة فقد درسوا سنن الله في

عباده وأدركوها ثم تعاملوا معها على النحو الذي يرضي الله تعالى ويحميهم من نتائجها. فإذا نظرنا إلى وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما عندما ودَّعه متجها إلى حرب القادسية وهو يلفت نظره إلى إحدى السنن الإلهية ويهيب به أن يبعد جيشه عن الانحرافات والمنزلقات فقال له «يا سعد ابن أم سعد لا يغرنَّك أن يقال عنك خال رسول الله فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن... آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما يُنصرُ المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم لأن عددنا ليس كعددهم وعُدَّتَنا ليست كعُدَّتِهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وإن لم ننتصر عليهم بفضلنا لن نغلبهم بقوتنا».

لقد أمرنا الله عز وجل بأن نسير في الأرض لنرى سنن الله فيمن كانوا قبلنا فيقول تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن عِلْماً من العلوم لتقديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه فيجب على الأمة أن يقوم فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من

العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال وبيَّنها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة وقد دلنا على ما أخذه على أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها» ويقول الشيخ محمد عبده رحمه الله: «ولا يحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت لها الأصول والقواعد وفُرِّعت منها الفروع والمسائل وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنين وعالمين بمراد الله من ذكرها يعنى أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها وبما مُنحِوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياساتهم للأمم التي فتحوها وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري البحت وكذلك كانت علومهم كلها. ولما اختلفت حالة العصر اختلافاً احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم السياسة الدينية سمِّ بما شئت».

«إن هذا الكون يجرى وفق قانون غاية في الدقة والإحكام والشمول بحيث لا يخرج عنه شيء من أصغر ذرَّة إلى أكبر نجم ومن الجماد والنبات إلى كل ذي روح ومن حركة الذَّرة في مدارها التي لا نشعر بها إلى حركة

الريح العاصف التي تقتلع الأشجار وتهدم البيوت، فالكل منقاد وخاضع لهذا القانون العام أو السنة الإلهية، وهذا الخضوع من الأفراد والأمم في جميع أحوالهم لهذا القانون الإلهي مثل خضوع الأحداث الكونية المادية تماماً، فكما أن سقوط برتقالة من شجرة هو نتيجة لقانون الجاذبية الأرضية فكذلك سقوط دولة أو هلاك أمة هو أيضاً نتيجة لأسباب معينة أدت إلى هذا السقوط، وإذا كان الأمر ملموساً في الجانب المادي لخضوعه لقوانين المادة مثل قانون الجاذبية وشروق الشمس وغروبها وتوالى الليل والنهار وغيرها من الظواهر الكونية المادية فإن الفرق بين هذه الأحداث الكونية المادية وبين الأحداث الاجتماعية هو أن أسباب الأولى واضحة جلية وفى غاية الانضباط إذا عرفناها استطعنا أن نحكم بدقة على نتائجها ومراقبتها بينما الأحداث الاجتماعية بمختلف أنواعها من سياسية واقتصادية وحضارية وعمرانية وغلبة ونصر وهزيمة .... الخ. أسبابها دقيقة وكثيرة ومتشعبة وقد يصعب على الكثيرين الإحاطة بها تفصيلا ولكن مع تلك الصعوبة يمكن للمتأمل الفاحص الدقيق أن يعرفها ويحيط بها علماً كما يمكن أيضاً الجزم بنتائجها وإن لم يمكنه الجزم بمواقيتها فنستطيع مثلاً أن نحكم على وجه اليقين بزوال حكم أو سلطان إذا وجدناه قائماً على الظلم والإرهاب وإن كنا لا نستطيع تحديد وقت زواله على وجه الدقة كما نحدد ميعاد غروب الشمس وشروقها»[1].

(١) السنة الإلهية في الشريعة الإسلامية/ د. عبد الكريم زيدان، ص ٢٤.

وسنة الله تتسم بالثبات والاطراد والعموم.

فهي ثابتة لا تتغير قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

وهي مطردة لا تتخلف ويدل على اطرادها أن الله تعالى قصَّ علينا قصص الأمم السابقة وما حلّ بها لنتعظ ونعتبر ولا نفعل مثلهم لئلا يصيبنا ما أصابهم ولولا اطرادها لما أمكن الاتعاظ بها والاعتبار بها يقول تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

وهي تتصف بالعموم أي إنها عامة يسرى حكمها على الجميع دون محاباة ولا تمييز قال تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾

[القمر].

أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدَّم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم وهكذا فمن سار على سنن الله ظفر بالفوز وإن كان ملحداً أو وثنياً ومن تنكَّبها خسر وإن كان صدِّيقاً أو نبياً. وعلى هذا النحو نستطيع أن نفهم لماذا انهزم المسلمون في أُحُد وكذلك في أول معركة حنين ونفهم أيضا انتصارهم على الأصعدة المتعددة (تفسير المنار). ولذلك فإن من الأولويات المطلوبة في الفهم والتفكير الإسلامي اليوم إدراك أمر السنن والأسباب والأقدار وامتلاك القدرة على التعامل معها وتسخيرها لدخول حلبة

الصراع الحضاري بميادينه المتعددة وأدواته ووسائله النوعية المطلوبة حيث إن دخول أي معركة بدون أسلحتها الفاعلة سوف يؤدي إلى الخسارة الفادحة. وهذا لن يتأتى من زيادة الحماس والارتقاء بالروح فقط ولن يتحقق لعامة الناس وإنما لا بد له من وعى كامل بمعرفة السنن الإلهية في الكتاب والسنة فهو أمر لابد منه. وقد يكون من المفارقات العجيبة في الحالة الإسلامية اليوم أن المسلمين لا يزالون يمتلكون الخطاب الإلهي السليم دون سائر الأمم ويمتلكون معرفة الوحي التي توقفهم على تاريخ الحضارات نهوضاً وسقوطاً وخلاصة التجربة البشرية والسنن التي حكمتها في السقوط والنهوض لكنهم يعجزون عن الإفادة منها. إن علم السنن التي شرعها الله للأنفس والآفاق تعد من الفروض الحضارية التي غفل عنها المسلمون دولاً وأفراداً وجماعات، أين السير في الأرض المأمور به شرعاً والتوغل في التاريخ واكتشاف السنن التي طلب القرآن تحصيلها والاهتداء بها إلى الفعل الصواب والاتعاظ بما تحقق فيها في إطار الأمم السابقة والقيام بعملية المغالبة بين سنة وسنة وبين قدر وقدر، إن فريقاً من المسلمين اليوم يسيرون في الأرض ويذهبون إلى بلاد الحضارات الأخرى سير البلهاء والمغفلين اللاهين الذي ينتهي بهم قصدهم ويتحقق على مزابل الحضارة الغربية وشهواتها وإباحيتها أو على أحسن الأحوال يقرءون الحضارة قراءة خاطئة لا تسمن ولا تغني من جوع وقد تسخِّرهم بدل أن يُسخَّروها ويعتبروا بإصاباتها.

إن السنن هي أمر الله وقدره الثابت الذي لا يتبدل قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨].

إن علم السنن لم يأخذ طريقه بعدُ إلى المسلمين أو إلى المؤسسات الإسلامية المنوط بها إخراج الأمة والعالم الإسلامي من التخلف الذي نعيش فيه في الوقت الذي أصبحت فيه مراكز البحوث والدراسات المتخصصة في نطاق الحضارة التي تسعى إلى الغلبة والتفوق والسبق تتجاوز التصور. لقد أصبحت مراكز البحوث والدراسات والمعلومات جزءاً لا يتجزأ من نتائج الحضارة ولوازمها وأصبحت وسيلتها الفاعلة في إدارة الصراع والحوار الحضاري وأصبحت جزءاً من البيئة العقلية للنظام الحضارى الغربي ومرتكزاً من مرتكزات النظام المعرفي وحاسة من حواس صاحب القرار السياسى وجانباً هاماً من مبانى الجامعات والمعاهد والمدارس. إنها مختبرات الفحص والتحليل والاختبار لكل الظواهر الاجتماعية والفكرية التي تمكن من التخطيط المستقبلي وصناعة القرار، في الوقت الذي نرى فيه عالم المسلمين — إلا من رحم الله- لا يزال يمارس حالة من الانتظار حتى تسقط الحضارة الغربية لصالحه دون أن يكون صالحاً أو مصلحاً والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء].

إن الكثير من المسلمين اليوم مصابون بالأمية التي أخبر القرآن بها عن

أهل الكتاب حيث قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] .

إن حالة التراجع والانسحاب والسلبية التي يعيشها معظم المسلمين اليوم انعكست على فهمهم للدين لإيجاد مسوغات ومشروعيات لحالهم، إنهم ينتظرون السنن الخارقة ويعدلون عن السنن الجارية ولا يحسنون فقه الكتاب ومع ذلك يندبون حظهم العاثر والله تعالى يقول: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣].

إن الهدف من هذا الكتاب ليس من قبيل الترف العقلي إنما هدفه أن نأخذ العبرة والعظة ودروس التاريخ من خلال قراءة فقهية لأربعة من السنن الإلهية وهي سنن التداول والتدافع والتغيير والتمكين لتكون محركاً ودافعاً لنا للعمل الدءوب حتى تتحول حياتنا من السيئ إلى الحسن ومن حياة الذل إلى حياة العز حيث الريادة والقيادة والكرامة التي أرادها الله للمؤمنين ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون] .

المؤلف

* * *

سنة التداول

إن من ينظر في أحوال الأمم عبر التاريخ يجد شعلة الحضارة تنتقل من أمة إلى أمة وفقاً لسنة الله في التداول، فقد كانت قيادة العالم قديما في يد الشرق على أيدي الحضارات الفرعونية، والآشورية، والبابلية، والفينيقية، والفارسية، والهندية، والصينية ثم انتقلت إلى الغرب على يد الحضارة اليونانية ذات الفلسفة الشهيرة والرومانية ذات التشريع المعروف ثم انتقلت هذه القيادة مرة أخرى إلى الشرق على يد الحضارة العربية والإسلامية وهي الحضارة التي جمعت بين العلم والإيمان وبين الرقي المادي والسمو الروحي، وحين غفا الشرق وغفل عن رسالته أخذ الغرب الزمام وكانت له القيادة مرة أخرى.

إن سنة التداول أو المداولة للأيام بين الناس والأمم هي السنة التي قررتها الآية الكريمة من سورة آل عمران والتي نزلت بعد غزوة أحد والتي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم حيث قال الله عز وجل:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران].

يقول ابن كثير في تفسيره لتلك الآيات ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ونديل عليكم الأعداء تارة وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة ومن هذه الحكمة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ {ومنها} ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ {ومنها} ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ {ومنها} ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. فالأيام في الآية أوقات الظفر والفوز ومداولتها بين المؤمنين وأعدائهم أي تحويل النصر والغلبة بينهم مرة للمؤمنين ومرة لأعدائهم فهذه المداولة سنة من سنن الله في تدافع أهل الحق مع أهل الباطل لأن المؤكد أن العاقبة ستكون لصاحب الحق وذلك إذا أخذنا بأسباب الغلبة والنصر حتى تكون المداولة لهم لا لعدوهم.

وبهذا فالتداول سنة من سنن الله في الاجتماع البشري فلا عجب أن تكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحق وإنما المضمون دائماً لصاحب الحق وأن تكون له العاقبة وأن أهل الحق يرثون أهل الباطل في الأرض لا العكس، وهذه سنة من تلك السنن التي خلت. والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس، ولا تكون لفريق دون آخر جزافا وإنما تكون لمن عرف أسبابها وفقه سننها ورعاها حق رعايتها فإذا عرفتم ذلك وهذا فلا تهنوا ولا تحزنوا ولله عاقبة الأمور [1].

وقد كتب الله سنة التداول على بني إسرائيل فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ

(١) تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، للفيروزآبادي.

إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء].

وكلمة قضينا اقتضت الإخبار عما سيؤول إليه أمر بني إسرائيل وما سيكشف التاريخ من فسادهم وظلمهم في الأرض وليس القضاء هنا قضاءً قهريا جبرياً يصم العقول عن التفكير ويجبرها على الفساد بإقصاء الإرادة والاختيار لدى أصحابها بحيث لا تعمل إلا شرا وباطلا وظلما، كلا إن هذا يتنافى مع عدالة الله وإنما علم الله الأزلي المطلق الذي علم الله به ما تضمره نفوس بني إسرائيل عن طواعية وإرادة فقرر لها ذلك المآل والمصير الكالح وتغيرات الأحوال في تاريخهم الطويل وعلاقاتهم بشعوب الأرض وكان تاريخهم عبارة عن عز وتمكين حينا وذل وهوان أحيانا وفترات حرب واقتتال فهم لم يموتوا ولم يحيوا حياة بقية الشعوب والأمم الأخرى سنة الله في خلقه والله يفعل ما يريد وما ربك بظلام للعبيد.

وجرت عليهم دورات فَعَلَوا في الأرض المقدسة وكان لهم فيها سلطان وقوة ثم أفسدوا فيها فبعث الله عليهم عبادا له أولي بأس شديد ثم كانت الغلبة لهم وأمدهم الله بأموال وبنين وكانوا أكثر نفيرا، وتنتهي هذه الدورة

من تاريخهم، وقال الله لهم: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ وهذه القاعدة التي لا تتغير والسنة الباقية حيث يعامل الله البشر على قدر أعمالهم وتحقق الإعجاز التاريخي في القرآن، وصدقت النبوة وسلط الله على بني إسرائيل في تاريخهم الممتد من قهرهم أول مرة ثم سلط الله عليهم من شردهم في الأرض دون خلق الله، ولا ينص القرآن عن جنسية هؤلاء الذين بعثوا على بني إسرائيل وسلطوا عليهم وإنما وصفوا بأنهم أولي بأس شديد ثم قال الله لهم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٨] في أي زمان ومكان فالجزاء حاضر والسنة ماضية (١) .

ولقد عاد بنو إسرائيل إلى الفساد في الأرض ومحاربة الحق وظلموا الإنسانية فسلط الله عليهم المسلمين في القرن السادس الميلادي فأخرجوهم من الجزيرة العربية وعادوا إلى عادتهم فسلط الله عليهم أمم وقادة ظالمون مثلم (كهتلر) وغيره وعادوا الآن إلى الفساد والظلم ونحن في انتظار وعد الله فيهم (٢) .

التداول وسنة الله في الظالمين:

من سنة الله في التداول هلاك الأمة بظلمها وفي بيان هذه السنة العامة آيات كثيرة في كتاب الله منها:

---

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢١٢-٢١٤ .

(٢) زوال إسرائيل حتمية قرآنية، الشيخ سعد التميمي.

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام] .

﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنعام] .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ [يونس:١٣] .

وهذا الظلم نوعان (الأول) ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسق والفجور والخروج عن طاعة الله والتظالم فيما بينهم (والثاني) ظلم الحكام لهم على نحو يهدر حقوقهم ويذهب بعزتهم ويعودهم على حياة الذلة والمهانة مما يجعل الأمة ضعيفة غير صالحة للبقاء فيسهل على الأعداء الاستيلاء عليها واستعبادها ويصدق عليها قول الله عز وجل: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنبياء] .

إن الدول لتبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط ولكن إذا انضم للكفر ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم يقول عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود] ويقول القرطبي في تفسيره: «إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال وقوم لوط باللواط».

ويقول ابن تيمية في رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: «إن الله ليقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة،

ويقال أن الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق – أي في الآخرة – وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة».

ومن آثار الظلم خراب البلاد اقتصادياً وعمرانياً لزهد الناس في العمل والإنتاج وسعيهم الدائم إلى الفرار والخروج منها وكل ذلك يؤثر في قوة الدولة اقتصادياً وعسكرياً ويقلل من مواردها المالية التي كان يمكن إنفاقها على إعداد قوتها في مختلف المجالات مما يجعل الدولة ضعيفة أمام أعدائها الخارجين وإن بقيت قوية طاغية على مواطنيها الضعفاء المساكين المظلومين.

كما أن الظلم يخرب البيوت يقول تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل] ويقول تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج].

الفساد والانحراف من أسباب سقوط الأمم:

هناك حضارات سادت ثم بادت فأصبحت حصيداً كأن لم تغن بالأمس وكل حضارة من هذه الحضارات قد سيطر عليها نوع بارز من الانحراف الذي جرّ عليها الوبال والدمار بعد أن أعرضت عن هدى الله. ولا يحدث ذلك إلا إذا انحرف الأفراد عن هدى الله واتبعوا أهواءهم

وطغوا وتكبروا وسعوا في الأرض فسادا ذلك أن المجتمع يفسد بفساد أفراده ويصلح بصلاحهم ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم].

ومن الأمثلة التي ضربها القرآن:

قوم نوح:

لبث نوح في هذه الأمة ألف سنة إلا خمسين يدعوهم إلى الله وهم مصرون على استكبارهم وعنادهم قد ملأهم الشعور بالعظمة وازدراء الضعفاء والفقراء فكان حقيق بهذه الأمة أن تفنى وأن تبيد وكذلك كان الأمر الإلهي ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود] .

قوم هود:

وهم «عاد» الذين غرتهم قوتهم لما هم فيه من شوكة وسلاح وزادهم غروراً خيرات الأرض المتدفقة وثمراتها فجحدوا نعمة الله فكان جزاؤهم ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود] .

قوم صالح:

وهم «ثمود» الذين كانوا يرفلون في الرخاء والنعمة وسعة العيش بعد الفقر فصدَّهم بطرهم عن سماع كلمة الهدى فطوتهم صفحة النسيان ودخلوا ليل التاريخ المظلم.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة].

قوم لوط:

الذين انحرفوا عن الخُلُق القويم واتَّبعوا الشهوة المرذولة التي انتشرت فيهم فلم تعد سراً يُستر وعيباً يُستحيى منه بل غدا الأمر جهارا نهارا فكان ما كان من عذابهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾ [الأعراف].

قوم شعيب:

«أهل مدين» الذين أكرمهم الله بنعمه السابغة فلم يشكروا للمنعم نعمته، بل طغوا وانحرفوا عن الحق ولعبوا بالموازين شحاً، وأثره ليس عن فقر وإملاق فكان عقاب الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ [هود].

فرعون:

جاء بعد هؤلاء جميعاً وكان من الظلم والعسف والقوة بمكان فأضل قومه واستعبدهم وقال لهم أنا ربكم الأعلى وكان عاقبة فرعون أن أغرقه الله هو ومن تبعه من قومه: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥﴾ [النازعات].

المسلمون وسنة التداول (نظرة تاريخية):

*** العهد النبوي: (حتى سنة ١١ هـ) [١١ سنة]**

قامت دولة الإسلام بقيادة النبي محمد ﷺ في المدينة المنورة واستطاعت أن تنشر العدل والرحمة والأمن والرخاء في ربوع الجزيرة العربية وما حولها حتى لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى.

* الخلفاء الراشدون (١١هـ - ٤١هـ) [٣٠ سنة]

تسلم الخلفاء الراشدون الراية وساروا والمسلمون على درب الرسول ﷺ ما غيروا ولا بدلوا واندفعوا في مشارق الأرض ومغاربها يبلغون دعوة الله للبشرية وكانت فترة الخلافة الراشدة لا تتجاوز الثلاثين عاماً وهي فترة قصيرة في عمر الزمن ولكنها كبيرة وثقيلة في ميزان القيم فقد كانت تلك السنوات القصيرة أعلى قمم صعدتها البشرية في تاريخها كله.

سقوط الدولة الأموية (الملك العضوض) (٤١هـ - ١٣٢هـ)

كان معاوية رضي الله عنه - بلا ريب - أحد دهاة العرب القلائل وكان رجل دولة وخبير سياسة بمعنى الكلمة... بيد أنه كانت هناك حقيقة حضارية تقول: إن الحضارة حين ينفصل جسدها عن رأسها لا يمكن أن تكون قابلة للبقاء، فحين يحدث انشقاق بين روح الأمة وحكامها تسير القافلة بلا روح تماماً كما يسير الذي قطع رأسه عن جسده إنه لابد أن يسقط بعد خطوات.

ومنذ قيام الدولة الأموية واعتمد فيها نظام وراثة الخلافة وثمة انفصال بين جسد الأمة وروحها ذاقت منه الأمة الإسلامية مرّ الأهوال وكان أهم الأسباب في سقوط الدولة الأموية. لقد تشكلت طبقة أعطت

نفسها امتيازاً جنسياً غريباً لمجرد أنها من البيت الأموي رغم افتقادها كل صلاحيات الوجود والحكم ومع ذلك وقفت في الصف الأول وقادت وحكمت وهذه الظاهرة تلد أمراضاً حضارية خبيثة كلها شؤم وبلاء فإن هذه الطبقة سرعان ما يحاول كل منها الحصول على حق أكثر شرعية جنسية كي يصل إلى الحكم، وبالتالي يلجأ إلى الدس والخديعة والقتل والاغتيال ويسود الطبقة الحاكمة جو من الصراع الداخلي يمنعها من أن تؤدي للأمة أي شيء ويكون كل هم الحكام هو الحفاظ على الموقع والكرسي الذي يجلسون عليه، هكذا كان الأمر بين الأمويين ولاسيما في الأيام الأخيرة من عمرهم أيام الوليد بن يزيد، يزيد، مروان الجعدى حيث اتسع الخرق على الراقع وكان رصيد الدولة من الفساد والتحلل والظلم والضعف قد أصبح أكبر وأضخم من طاقة أي إنسان. لقد كانت حركة التاريخ التي هي من سنة الله في التداول قد قالت كلمتها في الدولة الأموية وهكذا تفعل الدول بنفسها نتيجة ظلمها ... وتراكم هذا الظلم.

وعندما سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ ولقي مروان المسكين مصرعه في حلوان بمصر... كان كتاب التاريخ يطوى إحدى صفحاته... يطويها بعنف لأن أبطالها أرادوا لأنفسهم هذا المصير حين راحوا ينفصلون عن ضمير الأمة ووجدانها ويعزلون أنفسهم عن شعوبهم بطبقة من العمال الظالمين الغاشمين.

* * *

الأمويون (٤١ هـ - ١٣٢ هـ)

خلفاء بني أمية [١]

١-معاوية بن أبي سفيان	(٤١هـ - ٦٠هـ)
٢- يزيد بن معاوية	(٦٠هـ - ٦٤هـ)
٣- معاوية بن يزيد	(٦٤هـ - ٦٤هـ)
٤- مروان بن الحكم	(٦٤هـ - ٦٥هـ)
٥- عبد الملك بن مروان	(٦٥هـ - ٨٦هـ)
٦- الوليد بن عبد الملك	(٨٦هـ - ٩٦هـ)
٧- سليمان بن عبد الملك	(٩٦هـ - ٩٩هـ)
٨- عمر بن عبد العزيز	(٩٩هـ - ١٠١هـ)
٩- يزيد بن عبد الملك	(١٠١هـ - ١٠٥هـ)
١٠- هشام بن عبد الملك	(١٠٥هـ - ١٢٥هـ)
١١- الوليد بن يزيد بن عبد الملك	(١٢٥هـ - ١٢٦هـ)
١٢- يزيد بن الوليد الأول	(١٢٦هـ - ١٢٦هـ)
١٣- مروان الجعدى	(١٢٧هـ - ١٣٢هـ)

* * *

(١) الوسيط، أحمد السكندري، مصطفى عناني.

سقوط الدولة العباسية (١٣٢هـ - ٦٥٦هـ):

من أعرق الصفحات التي قُدِّمت للحضارة الإسلامية وللتاريخ البشرى صفحة الدولة العباسية. لقد مرت على التاريخ البشري خمسة قرون وأكثر وهو يحنى جبهته لهذه الدولة. وبالطبع فليس من خصائص المسيرة البشرية أن تظل على وتيرة واحدة وهكذا كان شأن الدولة العباسية في مسيرتها بتناوبها المد والجزر واختلف عليها الحماة بين أتراك وسلاجقة لكنها بقيت مع ذلك رمز الهيبة التاريخية التي تفرض نفسها على كل القوى مستمدة هذه الهيبة من رصيد الخلافة الإسلامية التي مثَّلت وحدة الوجود الإسلامي إلى فترة قريبة من عمر التاريخ. كان قيام هذه الدولة على يد حركة سياسية قامت على تخطيط لعله لم يتوفر للمسلمين في تاريخهم كله دقة عمقاً وصبراً على النتائج واستغلالاً لكل القوى ثم كان السير التاريخي لهذه الدولة معجزة عجيبة وسط بحار متلاطمة الأمواج وعالم إسلامي فسيح يتعذر استمرار تماسكه وأعداء خارجيين من عناصر متباينة المذهب والجنس والميول، وسط هذا كله شقَّت الدولة طريقها... وعبر القرون الخمسة تقلب في الحكم عشرات من الحكام تقدَّمهم أبو العباس السفاح ثم أبو جعفر المنصور وبرز منهم كثيرون كالمأمون والرشيد والمعتصم والواثق والمتوكل والمهدي وظهرت أسر قوية وعناصر كبيرة سيطرت على الدولة أحياناً كالبرامكة وبني بويه والسلاجقة وتمتعت دول كثيرة بالاستقلال الفعلي كالطولونيين والإخشيديين في مصر والغزنويين في أفغانستان والبنجاب والهند. لقد كان أهم عوامل تحلل الدولة العباسية ودخولها طور

السقوط هو إهمالهم لركن هام من أركان الإسلام وهو (الجهاد) فبعد المعتصم المتولى أمور الدولة (٢١٨هـ- ٢٢٧هـ) لم يُسمع عن معارك ذات شأن قامت بها الدولة ولم يكن مبدأ الجهاد (الدائم) حماية لهذه الدولة المترامية الأطراف أحد أركان السياسة العباسية. لقد تقوقعوا في مشاكل الدولة الداخلية فحصرتهم مشاكلها وماتوا ببطء ولو أنهم وجهوا طاقة الأمة نحو الجهاد ضد الصليبين لتغير أمر الحركات الهدامة كالقرامطة والحشاشين وغيرهم ذلك لأن هذه الحركات لا تنتشر إلا في جو مليء بالركود والفساد. لقد كانت الحاجة الإسلامية ملحة في ضرورة رفع راية الجهاد وكانت الدولة الإسلامية التي تعرضت للانشقاق والتمزق تحتاج إلى هذا الصمام ليحميها من جو الخمول والاستسلام. لكن العباسيين غُزوا في عقر دارهم فذلوا ولم يرفعوا راية الجهاد ضد العدو الخارجي فارتفعت راية العصيان الداخلي. وفى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) كان هولاكو حفيد جنكيزخان يؤدِّب الذين اتجهوا إلى كل الطرق إلا طريق الجهاد وحاولوا العلاج بكل الوسائل إلا الوسيلة الإسلامية القوية الخالدة. لقد هاجم هولاكو بغداد وهدم أسوارها وأعمل المنجنيق فيها وحصد أرواح أبنائها وعندما خرج الخليفة المستعصم إليه مستسلماً بصحبة ثلاثمائة من أصحابه وقضائه دون شرط أمر هولاكو بقتلهم جميعاً.

وطُويت صفحة الخلافة العباسية ذلك أن أسلوب الأحلام الوردية الساذجة ليس وسيلة البقاء أو تشييد الحضارات فالذين لا يملكون إرادة الهجوم يفتقدون القدرة على الدفاع.

العباسيون (١٣٢هـ - ٦٥٦هـ)

خلفاء بني العباس إلى سنة ٣٣٣هـ [(١)]

١ - أبو العباس عبد الله السفاح	(١٣٢هـ - ١٣٦هـ)
٢ - أبو جعفر المنصور	(١٣٦هـ - ١٥٨هـ)
٣ - محمد المهدي	(١٥٨هـ - ١٦٩هـ)
٤ - موسى الهادي	(١٦٩هـ - ١٧٠هـ)
٥ - هارون الرشيد	(١٧٠هـ - ١٩٣هـ)
٦ - محمد الأمين	(١٩٣هـ - ١٩٨هـ)
٧ - عبد الله المأمون	(١٩٨هـ - ٢١٨هـ)
٨ - أبو اسحق محمد المعتصم	(٢١٨هـ - ٢٢٧هـ)
٩ - أبو جعفر هارون الواثق	(٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ)
١٠ - جعفر المتوكل على الله	(٢٣٢هـ - ٢٤٧هـ)
١١ - محمد المنتصر	(٢٤٧هـ - ٢٤٨هـ)
١٢ - أبو العباس أحمد المستعين	(٢٤٨هـ - ٢٥٢هـ)
١٣ - أبو عبد الله المعتز	(٢٥٢هـ - ٢٥٥هـ)
١٤ - محمد المهتدى بالله	(٢٥٥هـ - ٢٥٦هـ)
١٥ - أحمد المعتمد على الله	(٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ)
١٦ - أحمد المعتصم بالله	(٢٧٩هـ - ٢٨٩هـ)
١٧ - على المكتفى بالله	(٢٨٩هـ - ٢٩٥هـ)
١٨ - جعفر المقتدر بالله	(٢٩٥هـ - ٣٢٠هـ)
١٩ - أبو منصور محمد القاهر	(٣٢٠هـ - ٣٢٢هـ)
٢٠ - أبو العباس أحمد الراضي	(٣٢٢هـ - ٣٢٩هـ)
٢١ - إبراهيم المتقى بالله	(٣٢٩هـ - ٣٣٣هـ)

(١) الوسيط، أحمد السكندري – مصطفى عناني.

سقوط الخلافة العثمانية (آخر خلافة إسلامية):

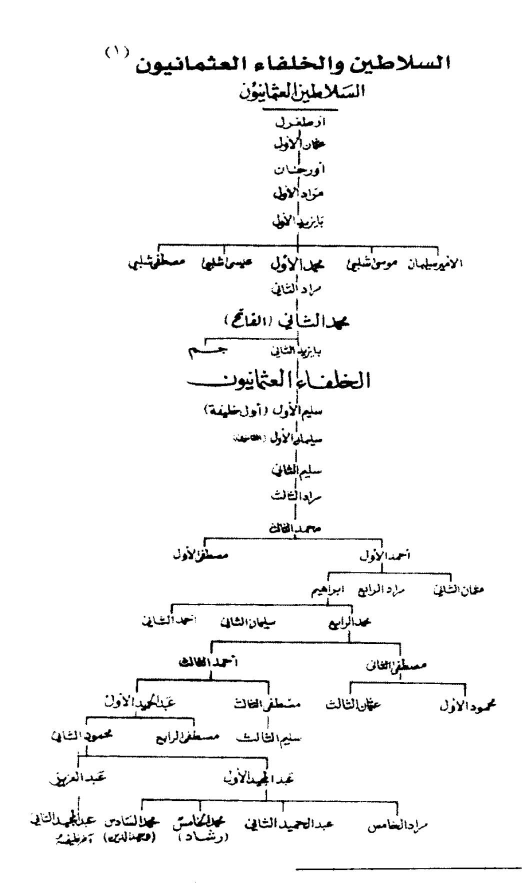
يرجع نسب الأتراك العثمانيين إلى قبائل الغزو التركية في بلاد تركستان وعندما اجتاح المغول تركستان لجأت هذه القبيلة التركية إلى جنوب القوقاز حيث توفي زعيمها «سليمان» وتسلم القيادة بعده ابنه (أرطغرل) الذي أنجب (عثمان بن أرطغرل) الذي تنتسب الدولة إليه. وعلى يد عثمان هذا تحولت الجماعات العثمانية من أسلوبها القبلي إلى أسلوب (الدولة) على حساب أملاك الدولة البيزنطية وخلف عثمان ابنه (أورخان) سنة ٧٢٦هـ واستمر ملوكها يتتابعون ومنهم (محمد الثاني) المعروف في التاريخ بمحمد الفاتح الذي ولي الأمور سنة ٨٥٤هـ (١٤٥١م) والذي نجح في الاستيلاء على القسطنطينية وقتل الإمبراطور البيزنطي «قسطنطين الحادي عشر» سنة ١٤٥٣م فقضى بذلك على الإمبراطورية البيزنطية. لقد استطاعت الخلافة العثمانية أن تحافظ على الإسلام وتحمي العرب والمسلمين لمدة خمسة قرون. ولم يكن بقدرة العروبة النائمة والتي لم تستطع إلى الآن أن تستيقظ اليقظة المرجوة أن تقف في وجه هذا الزحف. وعلى الرغم من تخلف العثمانيين في بعض النواحي فقد كانت قوتهم العسكرية تدوي في أوربا وكانت هذه القوة بالنسبة للأوربيين القوة التي لا تغلب ولا تهزم، حتى أن أوربا لم تجتمع على مسألة من قبل إلا على المسألة الشرقية أو مسألة التهام الرجل المريض (الخلافة العثمانية). وبالطبع فإن العثمانين لم يستطيعوا شأنهم في ذلك شأن العالم الذي كان قد بدأ يدخل في ميلاد جديد يقوم على الثورة

العلمية والصناعية الزاحفة. وقد ساعد على سقوط الخلافة وانهيارها ضعف السلاطين وانغماسهم في الترف وفساد أجهزة الدولة وانتشار الرشوة كما أن الأعداء من الصليبيين واليهود -يهود الدونمة والماسون- كانوا من عوامل إضعاف الخلافة العثمانية وانهيارها فقد استطاع العميل «كمال أتاتورك» إلغاء الخلافة الإسلامية وإعلان الجمهورية التركية في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م.

وتم طرد آخر خليفة للمسلمين من البلاد في٣ مارس ١٩٢٤م ومن ثم تداعت الخلافة الإسلامية وخضعت لسنة التداول فلم تقم لها قائمة حتى اليوم وتداعى بعدها ومعها العالم الإسلامي بلدا بلدا وتفككت أواصر الوحدة ونال العرب حظهم من كل ما أصاب العالم الإسلامي ولعل سنة الله قد لقنتهم أقسى الدروس حين زرعت في قلبهم شوكة الصهيونية تؤرق مضجعهم وتنتقم للخلافة الإسلامية التي حاربوها في حياتها ووقفوا جبهة واحدة ضدها وتُطلِعهم بجلاء على حقيقة «أتاتورك» ومخططاته وحقيقة الذين ساروا على هديه في سائر بلاد العرب ليزرعوا في القلب العربي أشواكاً أخرى.

* * *

السلاطين والخلفاء العثمانيون [(١)]



(١) الجامعة الإسلامية، موفق بهجت المرجة .

إن قصة خروج المسلمين من الأندلس لم تكن قصة انتصار عدو قوى علينا بقدر ما كانت قصة هزيمة المسلمين أمام أنفسهم، قصة ضياعهم وأكلهم بعضاً كما تأكل الحيوانات المنقرضة بعضها. وكان سقوط (قرطبة) أكبر معاقل الإسلام في الأندلس سنة ٦٣٣هـ بداية النهاية للسقوط التام في الأندلس.

وقد اضطر «ابن الأحمر» مؤسس مملكة «غرناطة» إلى أن يهادن ملك «قشتالة» الصليبى وأن يعقد معه صلحاً لمدة عشرين سنة، واعترف بالطاعة لملك قشتالة وتعهد بأن يؤدى إليه الجزية السنوية وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه (المسلمين)!!

وعندها استغل ملك قشتالة هذا الصلح ليتفرغ لضرب المسلمين الآخرين، هاجم مدينة «أشبيلية» قاعدة غربي الأندلس كله... وكانت هناك كتيبة إسلامية أرسلها ابن الأحمر تهاجمها معه (ما أشبه الليلة بالبارحة!!) فسرعان ما سقطت أشبيلية الإسلامية حاضرة الثقافة الإسلامية الرفيعة بيد «فرناندو الثالث» ملك قشتالة سنة ٦٤٦هـ وبمعونة ابن الأحمر – مؤسس مملكة غرناطة العظيم–!!! ولم تعد أشبيلية إلى الإسلام منذ ذلك اليوم. وعندما كاد أمد الصلح بين ابن الأحمر وبين ملوك قشتالة ينتهي (بعد العشرين سنة) سعى ابن الأحمر لتجديد الصلح وفى سبيل ذلك تنازل

لقشتالة عن عدد كبير من بلاد الإسلام قيل إنها بلغت أكثر من مائة بلد وحصن.

كان الارتماء في أحضان العدو ممكناً، وكان التنازل له عن الأرض ممكناً وكان الصلح المهين ودفع الجزية للعدو ممكنا وكان الخلاف مع بعضهم البعض لدرجة الاستنجاد بالعدو ممكنا كان كل هذا ممكنا إلا شيئاً واحدا... إلا العودة إلى الإسلام الصحيح الخالى من حب السلطة واستبعاد الدنيا والأمر بالاعتصام بحبل الله وحده وعدم التفرقة.

وفي الشرق الأندلسي كان كل شيء من هذا يحدث على نحو أشدّ وأقسى ففى «بلنسية» كان آخر أمراء الموحدين هناك (أبو زيد بن أبى عبد الله) يلجأ بعد انهيار ملكه في بلنسية تحت ضربات منافِسهِ (أبى جميل زيان) .. إلى الصليب الآخر الكبير في أسبانيا (خايمى) ملك «أرجوان» وكان هذا الموحدى العاق الجاحد شَهِد مع ملك أرجوان كل غزواته ضد المسلمين.. ولم يكتف بهذا المصير التعس فاتخذ قراره الشورى الحاسم «باعتناق النصرانية».. !!!

وبينما كانت مدن بلنسية الكبرى وقراها وحصونها تتداعى ما بين سنوات (٦٣١هـ- ٦٣٦هـ) كان (أبو زيد) يبذل جهوده مع النصارى في حروبهم ضد الإسلام ويعاونهم في التعرف على نقاط الضعف لدى أبناء دينه السابق وفى الوقت نفسه كان ابن الأحمر يساعد ملك قشتالة بكتائبه ضد إخوانه المسلمين.

«كان بقاء مملكة غرناطة الإسلامية في الأندلس قرنين من الزمان معجزة من معجزات الإسلام، فهذه الجزيرة الإسلامية العائمة فوق بحر الصليبية المتلاطم الأمواج والطافح بالحقد والمكر التاريخيين..هذه الجزيرة ما كان لها أن تصمد صمودها المشهور إلا لأن طبيعة الصمود كامنة في العقيدة والمبادئ الإسلامية.. وبدون العقيدة الإسلامية ما كان لهذه الجزيرة أن تصمد وحدها في الأندلس بعد أن سقطت كل المدن والقلاع الإسلامية منذ قرنين من الزمان. كان قانون (التحدي والصراع) هو الذي أبقى غرناطة حية زاخرة بالفكر الإسلامي والرقى الحضاري هذين القرنين وكان شعور أهل غرناطة بأنهم أمام عدو محيط بهم من كل جانب ينتظر الفرصة لالتهامهم وبأنه لا أمل لهم في استيراد النصر من العالم الإسلامي وأنه لا بد لهم من الاعتماد على أنفسهم.. كان هذا الشعور باعثهم الأكبر على الاستعداد الدائم ورفع راية الجهاد والتمسك بإسلامهم. وبهذا نجحت غرناطة في أن تظل إلى سنة ١٤٩٢م (٨٩٧هـ) سيدة الأندلس الإسلامي ومنارة العلوم وشعلة الحضارة الإسلامية الباقية في أوربا. لكن الأعوام القريبة من عام السقوط شهدت تطوراً في الحياة الأندلسية فعلى المستوى النصرانيى بدا (اتحاد) كبير يضم أكبر مملكتين مسيحيتين مناوئتين للإسلام وهما مملكتا أرجوان وقشتالة وقد أندمج الاثنان في اتحاد توَّجاه بزواج «ايزابيلا» ملكة قشتالة من «فرناندو» ملك أرجوان وكان الحلم

الذي يراود الزوجين الملكين الكاثوليكيين ليلة زفافهما هو دخول غرناطة وقضاء شهر عسلهما في الحمراء ورفع الصليب فوق برج الحراسة في غرناطة أكبر أبراجها وعلى المستوى الإسلامي كان (خلاف) كبير قد دبَّ داخل مملكة غرناطة بين أبناء الأسرة الحاكمة. وقد أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبى عبد الله(الصغير) يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء الزاهرة وأن يبقى هو حياً في غرناطة تحت حمايتهما وكما هو العادة في الملوك الذين يركبهم التاريخ وهو يدور إحدى دوراته قام أبو عبد الله بتسليم غرناطة بعد أن وقَّع معهم «معاهدة التسليم» الشهيرة في التاريخ وعندما كان أبو عبد الله (آخر ملوك غرناطة) يركب سفينته مقلعاً من غرناطة الإسلامية مودعاً آخر أرض تنفست في مناخ إسلامي في أوربا بعد ثمانية قرون عاشتها في ظلال الإسلام في هذا الموقف الدرامي العنيف... بكى أبو عبد الله ملكه وملك الإسلام المضاع وتلقى من أمه الكلمات التي حفظها التاريخ: (ابك كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال) والحق أن أمه بكلمتها تلك إنما كانت تلطمه وتلطم حكاماً في الإسلام كثيرين بكوا مثل النساء ملكاً لم يحفظوه حفظ الرجال!! »[1].

يقول سائح مسلم في ديار الأندلس:

«إن الدليل الذي قادني بين آثار الحمراء تناول المسلمين بالكلمة الحاسمة لقد قامت لهم دولة هنا لما كانوا خلائف ثم طردوا من هذه الديار

(١) الصفحات الأخيرة من حضارتنا/ د. عبد الحليم عويس، ص ٢٨.

لما أصبحوا على ثراها طرائف»[1].

التوازن الحضاري (سر آية الروم):

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم] فعندما غُلبت الروم وهم أهل كتاب أصبحت كفة الميزان راجحة لصالح الفرس عبدة النيران وأصبح الخوف من انفراد الفرس بالعالم وبالمسلمين خاصة، فجاء القرآن ليبشر أن الأمر لا يعدو أن يكون تداولاً للقوة لفترات قصيرة «بضع سنين» لا تستطيع قوى الاستكبار خلالها أن تنفرد بالعالم وإنما تعود سنة التداول للعمل وتغلب الروم بعد ذلك. وفى العصر الحديث ظل العالم يتقاسمه العملاقان الروسي والأمريكي حتى سقطت روسيا ١٩٩٠ وانفردت أمريكا بالعالم وظن الكثيرون أن انفرادها سوف يظل طويلا وأننا سوف نعيش القرن الأمريكي ولكن وفقاً لسنة التداول فإن البُشرى بتغيرات عالمية تعيد التوازن تنطلق من «سر آية الروم» العظيمة ومن ثم فإن تسلُّط قوى الاستكبار وانفرادها بالعالم الإسلامي هذه الأيام العصيبة سوف يتطلب مزيداً من الجهد والجهاد والحركة في ميادين الحياة جميعاً من أجل بناء القوة الذاتية روحياً واجتماعياً وتقنياً وحينئذٍ يفرح المؤمنون بنصر

(١) علل وأدوية / الشيخ محمد الغزالي، ص ٣٧.

الله القريب والبعيد، القريب بإعمال قانون «تداول القوة» حتى يمنحنا الله حصانة حضارية نعكف فيها على بناء قوتنا الذاتية، والبعيد عندما يتولد عن هذه القوة الذاتية نظام إسلامي دولي يقوم على البر والتقوى ويتولى هداية البشرية وأستاذية العالم. إن الحضارة كالبشر فيها الخير والشر وفيها الفضيلة والرذيلة والحق والباطل وأسوأ ما في الحضارة الغربية الاستعلاء والتسلط والعنصرية والأنانية والظلم وهي الجراثيم التي تنخر في عظام الحضارة الغربية وتهدد بزوالها. إن كل حضارة تحمل في أحشائها بذور فنائها فتندثر لتحل محلها حضارة جديدة. لها قيم وروح ومبادئ وما تاريخ البشرية إلا سلسلة متعاقبة من الدورات الحضارية.

قانون الاستبدال

قضت سنة الله أنه ما إن تبلغ الأمة درجة من التقدم والرقي المادي وتطمئن لذاتها وتعتمد على ثروتها وتعجب بحالها وتنسى أساسيات الحياة ومقومات البقاء والاستمرار حتى يداهمها بأس الله ويحل بها سخطه بسبب هذه العوامل الداخلية ذاتها، ولكي تستأنف الإنسانية رسالتها وتحافظ على جنسها ونوعها البشري فإن الله من رحمته لا يعمم الفساد في الإنسانية حتى لا يعم الهلاك ويبقى القلة على الحق لكي تبقى قلة استبدال قوم بقوم أو أمة بأمة كما يستبدل فرد بفرد في منصب من مناصب شئون الدول والحكومات، والأصل في الاستبدال أو الإبدال جعل شيء مكان شيء آخر

كإبدال حرف بحرف في اللغة في صيغة أحسن أو إبدال ثوب بثوب أجمل منه أو إبدال قوم بقوم صالحين (١) .

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة] .

ومعنى ﴿ ٱنفِرُوا۟ ﴾: أي اخرجوا مع نبيكم في غزوة تبوك ولعل بعض الصحابة رضي الله عنهم تثاقلوا عن الجهاد في هذه الغزوة واشتهوا الجلوس إلى متابع الحياة الدنيا، وإن لم تخرجوا أيها المخاطبون على مر العصور فإن الله يستبدل قوما غيركم خيرا منكم وأطوع لهذا الأمر وأمر الله كله ولن تضروا الله شيئا والله على كل شيء قدير (٢) .

والله قادر على خلق جنس آخر جديد من البشر كل حياته طاعة ولا يعرف طريقا إلى المعصية ولكنها سنة الله في الابتلاء والتجدد والاستبدال وهذا وعيد للذين لا يخرجون للجهاد في سبيل الله يحمل إليهم تخويفا بالعذاب الأليم ثم الاستبدال بقوم غيرهم، أما عن الذين يبخلون بالإنفاق

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (بدل).
(٢) تنوير المقباس في تفسير ابن عباس ص١٥٨ .

في سبيل الله فقد قال الله لهم: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد].

والمعنى إن تتولوا عن طاعة الله ورسوله وعما أمركم به من إنفاق في سبيل الله يهلككم الخالق سبحانه ويأتي بآخرين خيرا منكم وأطوع لله ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ لا في المعصية ولا في الطاعة لكن يكونوا خيرا منكم وأطوع لله.

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ أي في البخل وبالإنفاق في سبيل الله وإن اختيار الله للبشر لحمل رسالة الحق وعمارة الأرض تكريم منه سبحانه وعطاء، فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا التفضل وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة فيهون عليكم كل ما عداها فإن الله سبحانه يسترد ما ذهب ويختار غيركم لهذه المنة من يقدر فضل الله، سواء من البشر ذاته كاستبدال قوم بقوم أو يكون الاستبدال بخلق آخر من غير البشر، وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان والدعوة إلى الله والعيش في أحضان العدل الإلهي ثم تسلب منه هذه النعمة ويطرد من كنفها وتوصد أمامه الأبواب ويستبدل بغيره من البشر أو من خلق آخر أصلح لعمارة الأرض [1].

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٠٣).

إن الكثيرين من العاملين لعودة الإسلام يرددون مقولة «الإسلام قادم لا محالة» ولا شك أن كل المسلمين يثقون في ذلك. لكن السؤال هو ما دور من يتحدث عن حتمية عودة الإسلام؟!

فسنة الاستبدال لا تعني الإهلاك – وفقط – كما يعتقد البعض فالاستبدال هو أن يأتي أقوام آخرون لا يجيدون لغة الانتظار أو تبرير السكوت ليتسلموا الراية ممن تعدوا وتخاذلوا واكتفوا بالتبشير بقدوم الإسلام بقوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [الأنعام].

ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾ [المائدة].

إن الاستبدال هو عقوبة المتخلفين عن نصرة دين الله ، الذين ينتظرون أن تمطر السماء نصراً دون عناء وأن تتغير الأوضاع بمجرد السنين. ويا لها من عقوبة مؤلمة أن تُستبدل وأنت حي فهي أمرّ بكثير من أن تستبدل بموت أو هلاك.

إنك حين ترى الآخرين تسلموا الراية وتحركوا على عين الله، تدرك مرارة الاستبدال. وحين ترى الآخرين هم الذين يضعون الأحداث وأنت

تشاهدها تدرك معنى هذه العقوبة الربانية. إن الكثيرين ينتظرون قطار التغيير حتى يركبوه وهم يدَّعون أنه لم يأت. ولكنه يمر كل يوم ويتحرك من أمام بيوتهم، ولكنهم لازالوا في سكرتهم يتخيلون أنه ليس القطار المطلوب لأن ركَّابه ليسوا كثيرين. إن النصر قادم لا محالة. وهذا لا يعنينا لأنه أمر تكفل به رب العزة. ولكن الذي يعنينا هو أن نحدد دورنا ليعرف كل منا موقعه من أنشودة النصر.

سنن الله في الحضارات

إذا نظرنا إلى المعنى اللغوي للحضارة فسنجدها تعني الإقامة المستمرة في المدن والقرى فهي بخلاف البدو. ففي لسان العرب: الحضر – بفتح الضاد وسكونه – والحاضرة هي خلاف البادية وهي المدن والقرى وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي كان لها قرار [1].

وبهذا المعنى ورد اللفظ في القرآن فأصل الحضارة إذن هو الاستقرار، والاستقرار لا ينشأ إلا على زراعة الأرض وإقامة المباني وبهذا السبيل يفسح للإنسان مجال البقاء والتطور، ثم إذا استقر به المقام أكثر البحث عن الفنون والعلوم وتفنن في اكتساب العيش وبناء المدن، وإنشاء البساتين والحدائق

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (حضر).

وتدوين القوانين والدساتير في السياسة والاجتماع والاقتصاد ووضع البرامج والمخططات.

إن فكرة الحضارة أو التحضر الأولى في التاريخ صدرت لدى كثير من الأمم عبر الاستجابة لدعوة أنبيائهم كما هو الأمر بالنسبة للمسلمين في الاستجابة للقرآن بالنظر في الآفاق والأنفس، والتأمل في الكون والسير في الأرض وصدرت حضارتهم وانبثقت عن طلب الفوز في الدارين والإحساس بمسئولياتهم في وجوب عمارة الأرض بنشر الحق والعدل وفق سنن الله ومقتضيات الاستخلاف ومن دعوة القرآن بالتأمل في الكون والسير في الأرض والإحساس بواجب نشر الحق والعدل، أقام المسلمون الحضارة الإسلامية التي أساسها القرآن الكريم، وما أحدثاه في العقول المسلمة من تفجير للطاقات الكامنة في عملية الإنشاء والإبداع الفكري والفني.

وإذا لم يكن للحضارة دلالة محددة في القرآن فذلك ليس من طريقته ومنهجه وحسبنا ما في القرآن من قيم ومبادئ حضارية وصيغ ومفردات لغوية تعبر عن مسألة الحضارة.

ومن تلك المعاني اللغوية: الاستقرار والحضور حيث لا تعارض بين كثير من المعاني اللغوية والدلالات الاصطلاحية. ومن بين آيات القرآن نبتت كثير من العلوم والمعارف والقيم والمبادئ الحضارية والمصطلحات العلمية التي صنعت الحضارة الإسلامية وأثرت في الحضارات التي تلتها.

وبين القرآن منهج الحضارة الإنسانية ودلل على سنن إقامتها وبين عوامل هلاك الأمم ودمار الحضارات وألزم الناس باستيعابها ليسعدوا في الدنيا والآخرة فيقول الله تعالى عن قوم هو: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [هود:٦١] أي كلفكم بعمارتها بالحق والعدل والعمل الصالح [١] .

إن فكرة الحضارة في القرآن تؤكد أن الإنسان خليفة في الأرض ومكلف بإعمارها وبناء الحضارات على أساس من الوحي ولكي يستطيع الإنسان أن يقوم بدوره هذا فلابد من اتباع سنن الله في البناء الحضاري والتعرف على الذات الإنسانية في فطرتها وطبيعتها الأولى وتحقيق غاية الوجود الإنساني من الخلق. والمادة التاريخية في القرآن تتضمن قصص الأقوام والحضارات البائدة مثل قصص نوح وإبراهيم ولوط - عليهم السلام – وحضارة عاد وثمود والحجر وسبأ.

ومن بين أهداف إيراد هذه القصص أخبار السابقين هو دفع الإنسان إلى التساؤل والبحث عن الأسباب والعلل التي كانت وراء ازدهار هذه الحضارات ثم انطفائها وهو ما يمكن أن يطلق عليه سنن الله في الحضارات[٢] .

---

(١) الحضارة الإنسانية في القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، ص٢٦ .

(٢) الرؤية الحضارية للتاريخ، قراءة في التراث التاريخي العربي ، قاسم عبده قاسم، ص٨١ .

التداول الحضاري

إن فكرة التداول الحضاري (دورة الحضارة) فكرة قديمة تناولها كثير من المفكرين ولا تزال تتردد حتى الآن وسوف نتناول تصورات بعض المفكرين للتداول الحضاري فمن المسلمين (ابن خلدون) و(مالك بن نبي) ومن الغرب (شبنجلر) و(إرنولد توينبي).

* **يقول «ابن خلدون» (٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ)** إن الحضارات تمر بثلاث مراحل:

الأولى: تعيش عيشة البدو في الصحاري والقفار ولا تعرف قانوناً ولا تحكمها سوى الحاجات والعادات.

الثانية: تصل الأمة إلى تأسيس دولة وفي هذه المرحلة تعرف الأمة القوانين وتسن لنفسها النظام.

الثالثة: تنحوا الأمة أو الدولة إلى حالة الحضر ثم تنغمس في الترف والملاهي وتتخذ القصور والعروش زينة وتفاخرا حتى يدركها الاضمحلال وينالها القهر [(١)] .

أما عن سنن سقوط الحضارات ودمار الدول وذهاب الملك فيقول ابن خلدون: «إن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من النتائج وسائر مقاصد القرآن في الأحكام كلها مبنية على المحافظة على

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد ٣/ ٨٧١ .

العمران وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم ما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع ولما أدى إليه من تخريب العمران.. **وأن الملك لا** يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه **ولا قوام** للشريعة إلا بالملك ولا عزة للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان والعدل بإصلاح العمال وإصلاح العمال باستقامة الوزراء»[1] .

*** ويرى «مالك بن نبي» (١٣٢٥هـ - ١٣٩٣هـ): إن الحضارة تمر** بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي نقطة البداية والانطلاق في فجر كل حضارة حيث تظهر الفكرة الدينية وفي هذه المرحلة يكون الإنسان في أحسن حالاته النفسية وذا فعالية اجتماعية وتكون طاقته الحيوية في أتم استعدادها، وهذا هو العصر الذهبي للحضارة في أي مجتمع.

المرحلة الثانية: وفيها تبدأ بعض المظاهر السلبية تطفو على سطح المجتمع وتبرز الانحرافات العقدية والمظالم الاجتماعية وتظهر الأنانيات وتغلب المصالح الفردية على المصالح الجماعية وهكذا تتفكك القوى وتنقسم الحركة الاجتماعية إلى حركة مضادة وهي الكثرة وحركة على خط الاستقامة وهي القلة.

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٣٩ .

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة التفكك النفسي وانطلاق الغرائز وهي مرحلة السقوط الحضاري ومن خصائصها سيادة النزعة الفردية وتحرر الغرائز من سلطان الأخلاق والقيم وتفكك العلاقات الشخصية والاجتماعية وهذا ما يطلق عليه في تاريخ الحضارات مرحلة الأفول (١) .

ولذا نجد العلاقات الفاسدة في (عالم الأشخاص) لها نتائجها السريعة والسيئة على (عالم الأفكار) و(عالم الأشياء) والأمة ليست أكثر من هذه العوالم الثلاثة.

ذلك أن سيادة الفاسد في عالم الأشخاص وتفشي أمراضه في المجتمع هو بداية منحنى السقوط الحضاري الذي خلفته واستحدثته عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل والتي تستطيع أن تخترق بطريقة قد تكون لا شعورية من الإنسان وفي غفلة من العقل لتدمدم داخل الأمة وتهيمن على حياتها الاجتماعية والاقتصادية.

ومن سنة الله أنه في الوقت الذي تنكمش فيه تأثيرات الروح والعقل تنطلق الغرائز الدنيئة من عقالها لتؤدي بالإنسان إلى التدني إلى الحياة البدائية أو الحيوانية (٢) .

* **يقول «شبنجلر»** (١٨٨٨م-١٩٣٦) : إن الحضارة تولد في الوقت الذي تستيقظ فيه الروح الفطرية للأمة ثم تتطور هذه الروح لتصير قوة

---

(١) ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية ، مالك بن نبي، ص٧١- ٧٢ .

(٢) شروط النهضة ، مالك بن نبي، ص ٥٣ .

معنوية وتصبح شكلاً وكياناً موجوداً على رقعة الأرض ثم تضعف قوة الروح عندما تتجسد أو تتحق في شكل دول وشعوب ومذاهب وفنون ومعارف وعلوم وتعود الروح إلى ذاتها وطبيعتها الأولى.

ولكل حضارة علاقة روحية عميقة بينها وبين أصحابها وبواسطة هذه العلاقة الروحية تناضل الحضارة لكي تحقق ذاتها وعندما تبلغ هذه الغاية يتصلب كيانها ويجمد وجدانها وتتسمم روحها ثم تخور قواها وتدخل مرحلة المدنية ويغدو حال الحضارة كحال غابة عملاقة جفت أغصانها والتوت أعناقها إلى الأرض وهذا ما نشاهده في بقايا وأطلال تلك الحضارات العملاقة كحضارة الفرس والروم والهند.

وكأن الحضارة ولدت لتموت وقامت لتسقط في مرحلة المدنية التي تقبع فيها القيامة المادية والوفرة العددية حيث تقام المباني الضخمة وتنشأ المدن العظمى ويغدو سكانها لا يمثلون أمة ومجتمعاً بل يمثلون ركاماً مكدساً من الجماهير التي تتفاعل بدوافع مادية ومصالح ذاتية لا تمت بصلة للجانب الروحي للأمة. وليس معنى هذا فناء الحضارة فناءً نهائياً بل تبقى قادرة على البقاء والاستمرارية قروناً وتكون كالشجرة التي استنفدت أغصانها وأوراقها ثم لا زالت تدب داخل عروقها مياه الحياة، ولما كانت الحضارة كالكائن البيولوجي فإنها تمر بنفس الأدوار التي يمر بها الكائن الحي الإنساني من طفولة وشباب ورشد وشيخوخة [1].

---

(١) أفول الغرب، شبنجلر، ج١ ص١٠٣-٢٢٤.

* درس «إرنولد توينبي» (١٨٨٩م-١٩٧٥م) تاريخ البشرية دراسة عامة واستنتج أن التاريخ يتكون من سلسلة من التجارب والأحداث يصل كل منها إلى قمته في صورة حضارة قائمة.

واختار من حضارات العالم إحدى وعشرين حضارة ومضى يدرس كل واحدة دراسة عميقة شاملة فتجمعت له ثروة من المعلومات والأفكار وتبين له أن حضارة كل أمة من الأمم التي اختارها موضوعاً لدراسته إنما هي استجابة لتحدي الظروف التي وجدت فيها هذه الأمة كما تبين له أن الحضارات التي درسها مرت بمراحل وأطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدم وزيادة القوة ثم أعقبتها مراحل أخرى من المصائب والمحن الداخلية والخارجية ثم تلاها تصدع في العناصر التي قامت عليها وإن هذا التفكك أو التصدع في أي من الحضارات الآفلة يأخذ صورة انشقاق في الصفوة القائدة ويؤدي إلى العجز عن الاستجابة شيئاً فشيئاً تفقد القيادة سيادتها الإبداعية فتتحول الأمور إلى الاضطراب والفوضى.

ومن هنا تولدت نظرية التحدي والاستجابة لدى (توينبي) التي تعتبر أم أفكاره وركيزة آرائه في ميدان الدراسات التاريخية وبحث شئون الحضارات والأمم واتضح له أن المجتمعات أو المجموعات البشرية دائماً تقودها الزمرة المختارة وأصحاب الرأي في الأمة نحو التحضر استجابة للتحدي المضروب على الناس وتكون الاستجابة هي الإبداع والابتكار في الأفكار والمناهج والوسائل المعيشية وعندما تصل إلى ذروة الإنتاج

والاختراع تتوقف وتتجمد القرائح وتنصرف الصفوة المبدعة وتبدأ الحضارة في التدهور والانحطاط ثم الأفول والسقوط وهكذا ترتد الجماعة البشرية إلى مرحلة البداوة تحقيقاً لمقولة (ابن خلدون) القائلة إن البداوة غاية الحضارة [1].

إن الكثيرين لم يكونوا يتوقعون سقوط الاتحاد السوفيتي بهذه السرعة وبهذا الشكل بل إن كثيراً من المتابعين والمراقبين ظنَّ في ظل الستار الحديدي المفروض حول الاتحاد السوفيتي السابق الذي أدّى إلى حجب جانب كبير من الحقائق أن انهياره غير محتمل لكن الذين ألموا بالخواء الفكري الذي أفرزته الماركسية ومجافاتها للفطرة الإنسانية وحاجات الإنسان وطاقاته وقدراته وتصادمها مع النواميس الكونية والسنن الإلهية توقعوا انهياره، وهذه التوقعات يجرى الآن طرحها وأكثر منها بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية. التي تربصت على عرش العالم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وفى الحقيقة فإن الأدلة المنطقية والعلمية تؤكد لنا أن انهيار أمريكا حقيقة مؤكدة وهذا ليس حديث العاطفة ولكن حديث الأرقام والإحصاءات والوقائع والأدلة وكلها شهادات شهد بها أهلها من كتّاب ومفكرين أمريكين تقول أن أمريكا الآن تجلس وحدها فوق القمة معتقدة أن العالم كله يعيش «القرن الأمريكي» ولكنها لن تظل طويلا لأن كل الشواهد تؤكد أنها سوف تفقد القمة وإذا كانت إمبراطورية أمريكا قد

(١) التاريخ والمؤرخون ، د. حسين يونس، ص١٧٧ .

حققت بعض الانتصارات في الخارج فإنها تتحلل وتحمل بذور فنائها في الداخل.

إن الأسباب المؤدية إلى انهيار أمريكا هي أقوى بكثير من تلك التي حطمت الإمبراطورية السوفيتية بل إن المصير الذي آل إليه الاتحاد السوفيتي قد يصبح حلماً بعيد المنال بالنسبة لأمريكا، فعندما انهارت الإمبراطورية السوفيتية المركزية عادت إلى عناصرها الأولى وهي جميعاً شعوب وجماعات لها جذور ومكونات راسخة وضاربة في الماضي ومنها على سبيل المثال الجمهوريات الإسلامية التي استقلت، أما إمبراطورية أمريكا فهي بلا عناصر أولية وبالتالي إذا انفرط عقدها فستتحول إلى جزيئات فسيفسائية بلا جذور. إن هناك مئات الدراسات التي كُتبت بأيدي الأمريكان أنفسهم والتي يتوقعون فيها السقوط الأمريكي حيث عكست شهاداتهم ترجمة صادقة لملامح التصدّع الكبير في بنية المجتمع الأمريكي وهذه الدراسات يجمعها موضوع مشترك هو مناقشتها للقضايا والمشكلات التي يعانيها المجتمع الأمريكي في النواحي السياسية والاقتصادية والتعليمية والاجتماعية والأخلاقية.

إن أمة بلا فضائل أخلاقية ولا قيم إنسانية لا يمكن أن تستمر في قيادة البشرية.

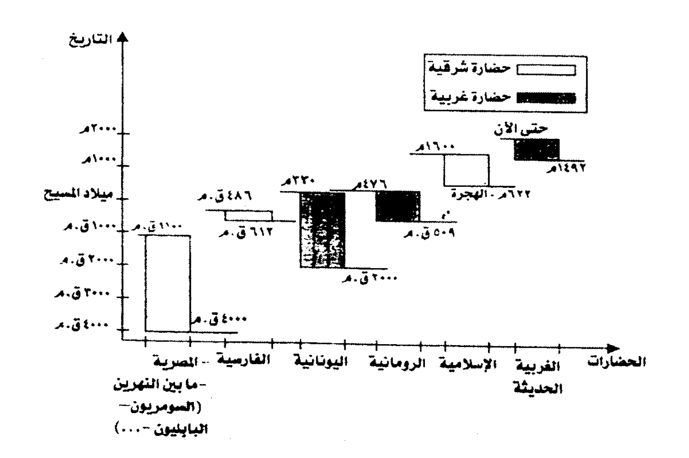
وأية أمة تخرج عن منهج ربها وتصادم فطرتها وروحها لا يمكن أن تبقى في الوجود الحضاري وعندما يحل بها أمر الله كما حل بالأمم السابقة

فإنه لن تغنى عنها أموالها ودولاراتها ولن تغنى عنها صناعتها وقوتها العسكرية. إن أمريكا تحارب الله عز وجل وتحاول منع إرادته ولكن أحداث التاريخ البعيد والقريب تكشف لنا عاقبة من يحارب الله وإرادته، إن أمريكا تعيش الآن بداية النهاية وتسير نحو هلاكها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [سورة ق:٣٦].

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف] .

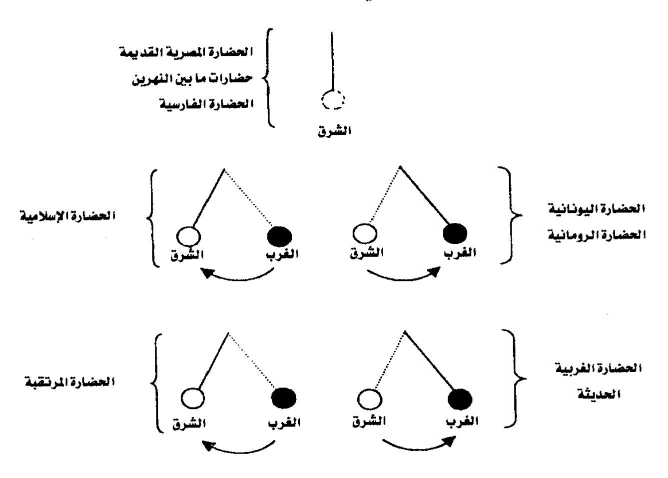
إن معرفة تاريخ الحضارات في صورته الزمنية يعطي القارئ شيئاً من الإحساس بأن العالم لم يبدأ من هذا القرن بل إن صنع البشرية فعل تراكمي يضاعف في كل مرة من رصيد البشرية ويجعل كل قفزة جديدة تبدو وكأنها القفزة التي لا تضاهيها قفزة أخرى. وإليك تعاقب الأمم والحضارات وتداولها بين الشرق والغرب في الشكل التالي والذي يوضح أن أغلب الحضارات جاءت موافقة لأفول نجم حضارة أخرى كانت تأخذ منها أفضل ما فيها ثم تزيد عليها إبداعاً لتصنع حضارة جديدة متميزة .



البندول الحضاري

تصور الكثيرون – وبسبب ضغط اللحظة الراهنة – أن الحضارة بضاعة غربية ونحب أن نؤكد حقيقة بسيطة وهي أن الشرق الذي يندب حظه اليوم وينظر بإعجاب إلى الغرب المتفوق، يجب ألا تغيب الحقيقة عن عينيه وهي أن منبت الحضارة كان هنا في الشرق لقرون متطاولة فهذه الأمم المتراجعة اليوم كانت يوماً تعتلي قمة الحضارة البشرية وفيها بدأت تهب رياح التغيير على الإنسانية. ومع ذلك فإن حركة البندول الحضاري لم تتوقف عندها فما هو هذا البندول ؟

إن التاريخ ينبئنا أن الحضارات العظمى قد بدأت في مصر وبلاد ما بين النهرين وفارس وكلها حضارات شرقية، وما لبث البندول أن تحرك إلى الغرب ليقرع أبواب اليونان وروما ثم غادر الغرب لقرون متطاولة تقرب من ألف عام ليستقر في مكانه في الشرق على يد الحضارة الإسلامية وهو اليوم في الغرب ثانية على يد الحضارة الأوروبية وهو عائد إلى بدايته مهما بدا للإنسان – كما هو الحال في كل الفترات السابقة – أن حركة البندول قد انتهت وأنه قد توقف وإلى الأبد في مكان واحد لا يغادره .



تقسيم التاريخ [1]

يقسم المؤرخون الغربيون التاريخ إلى قسمين كبيرين يفصل بينهما «اختراع الكتابة» وهذان القسمان هما:

١- عصور ما قبل التاريخ

وتبدأ بأول وجود للإنسان على الأرض قبل مليونين من السنين على وجه التقريب إلى أن توصل الإنسان «لاختراع الكتاب» في الألف الرابعة قبل الميلاد (ميلاد المسيح) .

٢- عصور التاريخ

وتبدأ من ٣٥٠٠ ق.م حتى اليوم وتقسم إلى ثلاثة أقسام حسب التصور الغربي وهي:

- **التاريخ القديم**: منذ ٣٥٠٠ ق. م إلى سقوط روما ٤٧٦م على يد البربر الجرمانيين (كلمة البرابرة هي ما كانت تصف به روما من كان خارج حدودها .

- **التاريخ الوسيط**: منذ سنة ٤٧٦م إلى سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م (أي ما يقرب من عشرة قرون).

- **التاريخ الحديث**: ويبدأ من سقوط القسطنطينية إلى يومنا الحاضر .

(١) نحو وعي استراتيجي بالتاريخ/ د. جاسم محمد سلطان.

ونلحظ من هذا التقسيم أن المؤرخين الغربيين اختاروا ثلاث نقاط مفصلية لتكون الفاصل بين مرحلة وأخرى وهي:

١ - اختراع الكتابة (٣٥٠٠ ق.م).

٢- سقوط روما سنة ٤٧٦م على يد قبائل البربر الجرمانيين.

٣- سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م على يد محمد الفاتح.

أولاً : اختراع الكتابة

اعتبر المؤرخون الغربيون اختراع الكتابة حادثاً مهماً جداً وفاصلاً بين مرحلتين كبيرتين في تاريخ البشرية وهما: مرحلة ما قبل التاريخ ومرحلة التاريخ القديم وذلك لأن هذا الاختراع يمثل بداية عصر التدوين والتاريخ وهو ما يتيح للبشرية معرفة الأحداث التي مرت بها في عصورها القديمة وتتبع صعود وهبوط الحضارات والأحداث الكبرى التي أثرت في مسار التطور البشري.

ثانياً: سقوط روما (٤٧٦م)

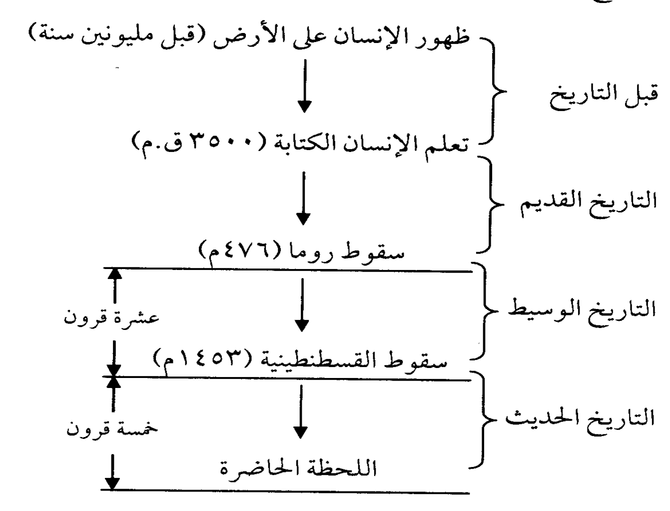
يعتبر المؤرخون الغربيون سقوط روما على يد البربر الجرمانيين من الأحداث المهمة الفاصلة في حياة البشرية والتي تعد فاصلاً بين مرحلتي التاريخ القديم والتاريخ الوسيط.

ثالثا: سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م

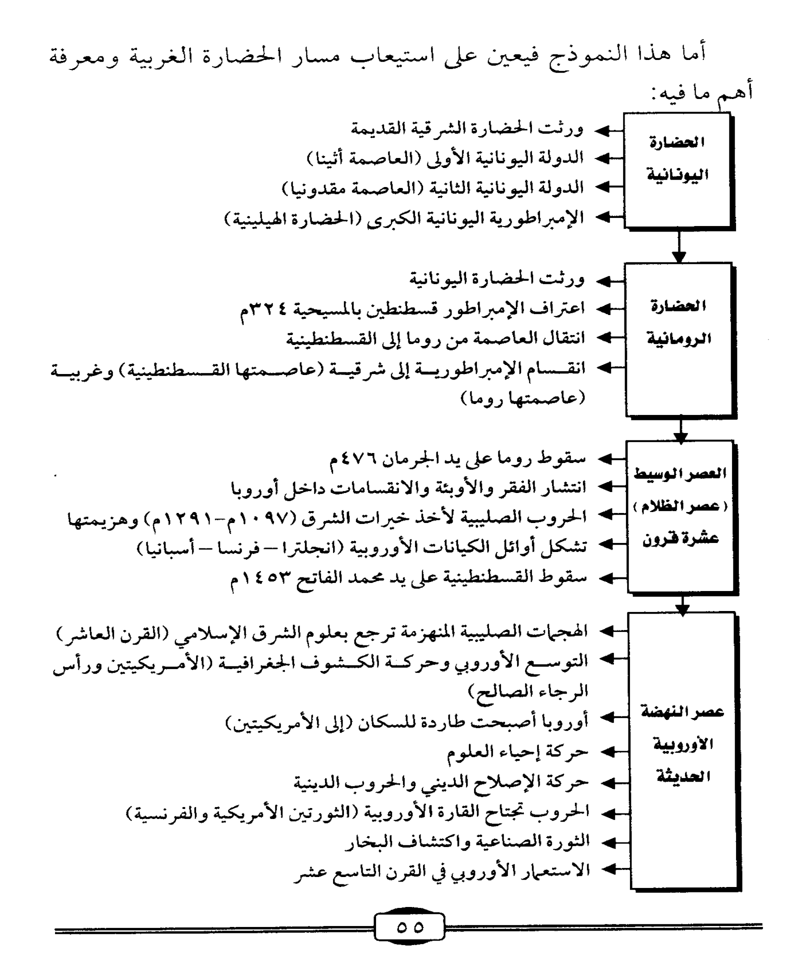
يعتبر هذا الحدث فاصلاً بين مرحلتين وهما التاريخ الوسيط والتاريخ

الحديث. ولابد أن نعلم أن التاريخ الوسيط يطلق عليه في التاريخ الأوروبي عصر الظلام بينما كان في التاريخ الإسلامي هو عصر الازدهار بل العصر الذهبي للحضارة الإسلامية وقد امتد هذا العصر عشرة قرون كاملة من التخلف والمعاناة والجهل والفقر بالنسبة للتاريخ الأوروبي ومن الازدهار والعلم والانتصارات للحضارة الإسلامية.

والنموذج التالي يوضح الإطار التاريخ الكامل الذي يسهل علينا قراءة التاريخ واستحضاره.



أما هذا النموذج فيعين على استيعاب مسار الحضارة الغربية ومعرفة أهم ما فيه:



وخلاصة النموذج السابق تتخلص فيما يلي:

- الحضارة اليونانية ليست وليدة إبداعها الخاص بها فحسب بل هي مزيج من ثلاث حضارات معاً: الحضارة الفارسية والحضارة المصرية والحضارة اليونانية.
- خلفت الحضارة الرومانية تراثاً كبيراً في السياسة وأسست لمبدأ نضال العامة (حق الثورة أو حق المشاركة الكاملة).
- انتهت الإمبراطورية الرومانية على يد محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣م وهاجر علماؤها إلى أوروبا الغربية ناقلين معهم علومهم وفنونهم ليبدأ الغرب دورة جديدة من الحياة.
- بدأت القرون الوسطى بسقوط روما في يد الجرمان ٤٧٦م وسميت بعصر الظلمات وامتد عشرة قرون.
- كان الأوروبيون في العصور الوسطى شهوداً على أنفسهم بالجهل وانتشار الأمراض والأوبئة والتخلف الشديد لمدة عشرة قرون من الزمان.
- يتناسى الأوروبيون في هذه الفترة أهمية الحضارة الإسلامية المجاورة لهم ويحاولون أن يقزِّموا هذه الفترة (عشرة قرون) بقدر الإمكان عند تناولها ويقللوا من حجم ما أخذوا منها.
- بدأت بذور النهضة عبر صراعات دموية محتدمة بين الملك والكنيسة.
- كان للحروب الصليبية الأثر الكبير في بزوغ عصر النهضة عندما تم نقل علوم الشرق إلى أوروبا.
- كانت الثورة الصناعية هي سبب النقلة الحقيقية لأوروبا من عصر الظلمات إلى عصر النهضة .

وهذا النموذج يعين على استيعاب مسار الحضارة الإسلامية ومعرفة أهم ما فيه:

الدولة الإسلامية النموذجية (٦٢٢م- ٦٦١م)

- الهجرة ٦٢٢م
- فتوحات مستمرة ضمت أجزاء واسعة من إمبراطوريتي بيزنطة وفارس
- مقتل علي بن أبي طالب ٦٦١م ونهاية الخلافة الراشدة

الدولة الأموية الشرقية (٦٦١م- ٧٥٠م)

- معاوية ابن أبي سفيان (٦٦١م-٦٨٠م) وبداية الملك
- خلافة عمر بن عبد العزيز الراشدة (٧١٧م-٧٢٠م)
- عهود قوة وفتوحات حتى عهد الوليد بن يزيد وبداية الضعف ٧٤٣م
- سقطت في أيدي العباسيين ٧٥٠م

الدولة العباسية (٧٥٠م- ١٢٥٨م)

- العصر الذهبي على يد السفاح ٧٥٠م
- قيام الدولة الأموية الغربية على يد عبد الرحمن الداخل ٧٥٦م
- انتهاء العصر الذهبي في عهد الواثق ٨٤٧م وبداية التدهور في عهد المتوكل
- ضعف الدولة الأموية الغربية وتفككها ١١٠٠م
- هزيمة الهجمات الصليبية وتحرير بيت المقدس ١١٨٧م
- قيام دولة المماليك البحرية ١٢٥٠م في مصر والشام والحجاز واليمن
- دخول المغول بغداد وسقوط الدولة العباسية في عهد المستعصم ١٢٥٨م
- دولة المماليك البحرية تتصدى للهجمات المغولية ١٢٦٠م (عين جالوت)

الدولة العثمانية (١٢٨٨- ١٩٢٤م)

- مرحلة التأسيس (١٢٨٨-١٥١٣م)
- سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية ١٣٨٢م
- مد السلطان مراد الأول حدود الدولة العثمانية إلى البوسنة ١٣٨٩م
- سقوط الدولة الأموية الغربية ١٤٥٢م
- فارانا ١٤٤٤م
- فتح القسطنطينية ١٤٥٣م
- سقوط دولة المماليك البرجية على يد العثمانيين في موقعة الريدانية ١٥١٧م
- أقوى فتراتها في عهد سليمان القانوني ١٥٦٦م
- فترة ضعف وانحلال (١٥٩٥-١٨٠٨م)
- عهد الإصلاح والتغيير دستور ١٨٧٦م
- تنفيذ نظرية الجامعة الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وحتى ١٩٠٩م
- سقوط الخلافة الإسلامية ١٩٢٤ وبداية الملك الجبري

وخلاصة هذا النموذج تتخلص فيما يلي:

- قامت الدولة الإسلامية الأولى ٦٢٢م على يد الرسول ﷺ رغم البداية الصفرية شأنها شأن كل الأمم الناهضة.
- كانت الدولة الأموية دولة فتوحات نشرت الإسلام شرقاً وغرباً.
- تزامنت في عهد الخلافة العباسية دولتان: الدولة العباسية في الشرق والدولة الأموية في الغرب والتي قامت على يد عبد الرحمن الداخل.
- شهد عصر المماليك مرحلتين: مرحلة المماليك البحرية ١٢٥٠م-١٣٨٢م وكان عصر قوة وعطاء انكسرت فيه الحملات الصليبية والمرحلة الثانية هي مرحلة المماليك البرجية ١٣٨٢م - ١٥١٧م وهو عصر ضعف.
- تأسست الدولة العثمانية ١٢٩٩م وانتهت ١٩٢٤م وكانت أقوى فتراتها (١٥١٢م -١٥٩٥م).
- في الوقت الذي طرد فيه المسلمون من الأندلس (غرب أوروبا) ١٤٥٢م كانت الدولة العثمانية تستعد لمواجهة أوروبا وتمكنت من فتح القسطنطينية ١٤٥٣م (شرق أوروبا).
- إن الأسباب التي أدت على سقوط الحضارة الإسلامية تتجسد في عوامل خارجية مثل الحروب الصليبية أو عوامل داخلية مثل الممارسات الداخلية السيئة.

سنة التدافع

التدافع (أو الصراع بالمفهوم الحديث) سنة اجتماعية من سنن الله تعالى وقوانينه التي لا تتخلف ولا تتبدل كما أنها سنة فردية أيضاً.

فالإنسان كفرد ليس خارجاً عن دائرة الصراع والتدافع الذاتي في الاختيار بين دوافع الخير ونوازع الشر في نفسه حيث تتحدد حرية الإنسان في الاختيار وتتميز كرامته. فالتدافع والصراع هو سبيل الحيوية والنمو وعلامة الحياة والاستمرار وهو أحد محركات الحياة. والتدافع له صور متعددة من الحوار والمناظرة والقتال والمواجهة والمغالبة وكل ذلك يقع ضمن دائرة الصراع الحضاري. والصراع بين الخير والشر والعدل والظلم والحب والحقد والعفو والثأر والإيثار والأثرة والحق والباطل لا يتوقف إلا بتوقف الحياة فيقول تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام:١١٢].

إنها ابتلاءات الحياة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة:٤٨].

فإبليس أبى السجود والطاعة لأمر الله وتمرد منذ بدء الخليقة وقال:

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف:١٤].

فقال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر].

واستمرت رحلة الغواية والصراع وكان لها جولات ممتدة في تاريخ البشرية على مستوى الأفراد والجماعات.

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].

ولعل من مظاهر رحمة الله أن هذا التدافع والاختلاف يظهر من خلاله الحق ويتمحص وبسببه تظهر الحقيقة ويعلو الخير.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة:٢٥١]

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الرعد:١٧].

والذي يدرك سنة التدافع والصراع وأسلحته وميادينه يصبح قادراً

على حسن تسخيره والفقه بنتائجه ويمتلك القدرة على التحكم والسيطرة ومغالبة سنة بسنة أو قدر بقدر ويمتلك القدرة على الحركة في كل الظروف ونستطيع أن نضرب مثالاً على الأخذ بسنة التدافع بقدرة وحكمة وما ترتب عليها من نتائج عظيمة بالصحابي الجليل نعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الأحزاب عندما رمت القبائل العربية الكافرة المسلمين عن قوس واحدة حيث تكالبت عليهم وتحالفت اليهودية والوثنية والقبلية وابتلى المؤمنون هنالك وزلزلوا زلزالا شديداً حتى بلغت القلوب الحناجر وبدأت الظنون تتسرب إلى النفوس الضعيفة قال الله تعالى:

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

في هذه اللحظات الحاسمة وهذه الشدة من المواجهة أسلم نعيم بن مسعود وجاء خفية إلى الرسول ﷺ وقال فيما ترويه كتب السيرة: أسلمت ولم يعلم أحد بإسلامي فمرني بما ترى فقال له الرسول ﷺ ما معناه «إنما أنت فينا واحد وإن الحرب خدعة فخذِّل عنا ما استطعت» فكان ما كان من نعيم من فهم واستيعاب وفقه لسنة التدافع وعوامله ومداخله وكان النصر بعد الشدة وكان بلاء نعيم في الوقت المناسب وفاعليته أعظم من جيش كامل بخططه وعدده. صحيح أن المسلم يعتقد بأن النصر من عند الله وهي حقيقة يجب ألا تغادر نفسه لكن صحيح أيضا أن هذا النصر أراده الله أن

يتحقق من خلال أقدار وسنن وعزمات بشر وأسباب ومسببات وكم يحتاج المسلمون اليوم في حالات الحصار التي تفرض عليهم ويعانونها أشد المعاناة إلى نماذج ذكية فقيهة بسنن وأقدار التدافع الحضاري قادرة على الدخول في حلبة الصراع بجدارة واقتدار تمكنها من تحقيق أكبر كسب لقضايا المسلمين. كم نحن بحاجة إلى نماذج من أمثال نعيم قادرة على التحرك في الوقت المناسب وحسن استخدام المتاح، ذلك أن الإنسان المسلم بمقدروه أن يحقق الكثير والكثير إذا أدرك إسلامه وعقيدته وفقه المعادلة الاجتماعية التي يعيشها ومن هنا ندرك كيف يكون الفرد أمة وخاصة عند غياب الأمة. لقد كان «عبد القدير خان» في العصر الحديث وهو أبو القنبلة الذرية الإسلامية نموذجاً فذاً في اختراق المجال النووي الذي احتله الغرب واستطاع أن يدخل باكستان النادي الذرى وأن يكسبها الخيار النووي واستطاعت «باكستان» لأول مرة في تاريخها أن تحقق الردع النووي بينها وبين جارتها «الهند» بعد معارك طاحنة انهزمت فيها باكستان شر هزيمة حيث كانت واقعة تحت مطرقة الفناء النووي وبمجرد أن حصلت على القنبلة النووية سعت الهند إليها للجلوس على مائدة المفاوضات، لقد كان «عبد القدير خان» قادراً على نقل التجربة إلى دول إسلامية عديدة لولا تخاذل الأنظمة وعدم رغبتها في امتلاك الخيار النووي وغير «عبد القدير خان» هناك المئات من العلماء في شتى التخصصات النادرة ولكن لا تتاح لهم الفرصة للتخذيل عن المسلمين وخدمة شعوبهم وأوطانهم.

وكم يحتاج المسلمون اليوم أيضا إلى العقلاء من الرجال أو الهيئات أو المنظمات الإسلامية لفك هذا الخصام النكد بين الشيعة والسنة إن ما يحدث الآن بين إيران وجيرانها من العرب يحتاج إلى من يقوم بجمع الفريقين في خندق واحد لمواجهة المعسكر الغربي المتربص والذي يحيك المؤامرات لضرب إيران بالعرب أو الشيعة بالسنة وإثارة الفرقة والانقسام والبغضاء بينهما حتى يستطيع الانفراد بكليهما. إن الحصار الذي تعانيه إيران من الغرب الآن يحتاج لمن يتقدم لرأب الصدع والتقريب بينها وبين جاراتها المسلمة لتنضم إيران إلى المنظومة الإسلامية بدلاً من استعدائها لتكون قوتها لصالح المسلمين وفى الخندق المواجه لقوى الاستكبار العالمي.

لقد أمر الله أهل الحق بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس وبكل ما يمكن الجهاد به للتدافع مع الباطل وأهله ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى فيقول تعالى:

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة:٤١].

إن الله تعالى أمرنا بإعداد القوة لنرهب بها عدو الله وعدونا ومعنى ذلك أن القوة التي نُعدُّها يجب أن تكون مُرهبة للعدو وهي لا تكون كذلك إلا إذا كانت أكبر من قوته بحيث تجعله يخاف أن يتحرش بالمسلمين وبدولتهم ويرهب قوتهم وييأس من أن يهاجمهم أو أن يستولى على أرضهم.

«وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة فهم يواجهون نظاماً عالميا وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة فعليهم أن يقرعوا الحديد بالحديد ويقابلوا الريح بالإعصار ويقاتلوا الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه وبكل ما امتدت إليه يدهم وبكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في ذلك العصر من سلاح وعتاد واستعداد حربي لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون»[1].

«إن التغيير الإسلامي الذي تنشده الأمة لا يمكن تحقيقه من غير جهاد وبدون صياغة جيل مجاهد فالمهمة التغييرية مهمة شاقة فالقوى الظاهرة والخفية القابضة على الزمام في العالم قوى شريرة وقد هيأها أعداء الإسلام لهذا الدور من زمن بعيد وهي تعمل ليل نهار على خفت صوت الإسلام بشتى الطرق والوسائل وإزالة هذه القوى وإقامة الإسلام مكانها ليس بالأمر السهل فهي ستتشبث بواقعها حتى النفس الأخير وذلك يحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى تربية جهادية تُخرِّج أنماطاً من المجاهدين يحبون الموت كما يحب الناس الحياة ويعيشون همّ الإسلام وقضاياه ليلهم ونهارهم ولابد من بناء قاعدة صلبة متينة تستطيع أن تصمد في هذا الصراع الجبار وتقف في وجه المؤامرات وتجاهد في كل المجالات والجبهات وتدفع ثمن التمكين لدين الله في الأرض من زهرة أبنائها الشهداء»[2].

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى ص ٢٢٥.

(٢) ركائز الإيمان بين العقل والقلب للشيخ محمد الغزالى ص ٧٥.

«إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وترقى في مصاعد المجد أن تجاهد بمالها ونفسها الجهاد الذي أمرها الله به في القرآن الكريم مراراً عديدة فالجهاد بالمال والنفس هو العِلمُ الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف»[1].

الصراع الحضاري:

إن فكرة الصراع الحضاري أو ما يسمى صراع البقاء للأقوى هي الأساس الذي تقوم عليه الحضارة الغربية بمذاهبها المتعددة وتطبيقاتها المتنوعة.

والصراع يعنى محاولة إلغاء الآخر بشتى الأساليب والوسائل ولذلك فإن أية حضارة أو ثقافة تفتقد البعد الإنساني وتقوم على العرق أو الجنس أو اللون أو الطبقة هي حضارة تمييز وتعالٍ الأمر الذي يقودها إلى الاعتقاد بأن البقاء مرهون بإلغاء الآخر لذلك تصبح الطبيعة العدوانية من أخص خصائصها إن لم نقل: إنها في الأصل تقوم على الفكرة العدوانية لأنها تنظر إلى الآخر نظرة دونية وتحاول أن تصرعه وتتغلب عليه وهذا يستدعى استعماره واسترقاقه واستنفاد طاقاته ليبقى صريعاً، ومن ثم فإن هذه الحضارة لا تستطيع أن تعيش بدون عدو يضمن تماسكها واستمرارها، فإن

(١) لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ الأمير شكيب أرسلان ص ١٦٤.

لم يكن لها عدو فلتصنع عدواً وإن لم تستطيع صناعة الأعداء لاستمرار التعبئة والمواجهة ترد سهامها إلى ذاتها فتتآكل من داخلها أو يتحول عدوانها إلى الداخل. وفى ضوء ذلك يمكن أن نفسِّر دوافع الحملات الصليبية على العالم الإسلامي كما نستطيع أن نفسِّر دوافع الاستعمار الحديث ويمكن أن نفسِّر في ضوئه أيضا الحروب العالمية الكونية التي كانت من أخطر صور العدوان وأعظمها ضحايا، فالمعروف أن معظم الأنظمة الفاشية والنازية والديكتاتورية ومؤسسات الاستبداد السياسي كانت من إفرازات الحضارة الغربية ومواليدها الشرعيين ولا يزال العالم يذكر نماذج المآسي الإنسانية من أمثال: «هتلر» و«موسوليني» و«ستالين» و«فرناندو» و«إيزابيلا» و«محاكم التفتيش» و«فرانكو» وغيرهم، كما لا يزال يذكر مذهب«ميكافيللي»-الغاية تبرر الوسيلة- والذي يمثل الأساس الثقافي والفكري لحضارة الصراع الغربية.

لقد كشف اليهودي الأمريكي «صموئيل هنتنجتون» في كتابه «صراع الحضارات» الوجه القبيح للحضارة الغربية وعن إعداد الغرب العدة للقضاء على الحضارة الإسلامية حيث ينحصر الصراع الآن بين الحضارتين على حد زعمه ويتوقع أن تكون الغلبة للحضارة الإسلامية إذا لم يتدارك الغرب أمره من الآن. لقد أصبح كتابه «هنتنجتون» دستوراً للغرب وضع الرئيس الأمريكي «بوش» على أساسه خطته لضرب الإسلام والمسلمين مستغلاً أحداث سبتمبر ٢٠٠١ تحت دعوى مكافحة الإرهاب في العالم.

إن من الضرورة بمكان أن تعى الأمة الإسلامية سنة الله في دفع الناس بعضهم ببعض لتدرك أن سنة الله تعالى في تدمير الباطل أن يقوم في الأرض حق يتمثل في أمة ثم يقذف الله تعالى بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [الأنبياء] وفي دائرة الصراع الأبدي بين الحق والباطل والواقع ضمن سنة التدافع ما جرى في هذا العصر في فلسطين من خلال ولادة الانتفاضة وبروز جيل الحجارة كما في الشيشان والبوسنة والهرسك وضمن هذا الإطار أيضا تقع معظم الصراعات الجارية هنا وهناك كالصراع في كشمير والفلبين والهند وإريتريا والصومال السودان والجمهوريات الإسلامية فيما وراء النهر وفى القوقاز .... وغيرها.

إن أعداء الإسلام يمكرون بالإسلام والمسلمين ويعدون لهم الخطط الجهنمية ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾ [إبراهيم].

وليت الأمر اقتصر على أعداء الإسلام من دول الغرب إنما المصيبة الكبرى أن يأتى المكر والعداء للإسلام من أبناء جلدته ومن حكامه وولاة أمره. والكبراء هم أهل المكر غالبا فيقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾ [الأنعام] .

لقد صار المجرمون هم أكابر المجتمع اليوم مع كونهم مجرمين بسبب

غفلة أهل الحق وضعفهم وتفرقهم وجهلهم سنة التدافع وقيامهم بمقتضاها مما سهل على أهل الباطل أن يسيطروا عليهم وينصبوا من أنفسهم قادة ورؤساء وعظماء وكبراء على المجتمع كله.

إن الحق لا بد له من قوة تحميه وتثبِّت وجوده في المجتمع فإذا فقد هذه القوة برزت قوة الباطل وبرز المجرمون وصاروا أكابر المجتمع وقادته إن أصحاب المكر السيئ لا يقف مكرهم عند حد المكر بل هم يستخدمون كل أنواع المكر من قتل وحبس وإبعاد. لقد مكرت قريش برسول الله ﷺ ودبرت لقتله أو حبسه أو إخراجه من مكة وفي هذا يقول تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال] ولكن الله تعالى يقول أيضا: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر].

يقول الألوسي: أي لا يحيط ولا يصيب ولا ينزل المكر السيئ إلا بأهله والله يمهل ولا يهمل وبالجملة من مكر به غيره ونفَّذ فيه المكر عاجلا في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك، وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا ويبين هذا المعنى قوله تعالى:

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [فاطر: ٤٣].

يعني إذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها فيهلكون كما هلك الأولون (تفسير الرازي).

ويقول ابن كثير في تفسيره: قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهن لم ينج من العذاب حتى ينزل به من مَكَر ومن بَغَى أو نكث وتصديقها في كتاب الله ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣].

وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣].

وقوله تعالى ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:١٠].

ومما ينبغي أن تعتبر به الجماعة المسلمة وهي تدعو للإسلام أن سنة الله في المكر والماكرين سنة ماضية إلى يوم القيامة فالكذب ولصق التهم بالدعاة والتآمر عليها وعلى قادتها وأعضائها والسعي الحثيث لتعطيل نشاطها بحبسهم أو إخراجهم من ديارهم أو قتلهم كل ذلك بعض مكرهم فهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ولكن الغلبة دائماً لأهل الحق لأنهم لا يخوضون المعركة وحدهم وإنما معهم الله جل جلاله ما داموا معه بالتوكل عليه والثقة به والالتزام بشرعه والاهتداء بسننه العامة في تدافع الحق والباطل»[(١)].

«إن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به وسواعد تمضي به وقلوب تحنو عليه وأعصاب ترتبط به، إنه يحتاج إلى الطاقة البشرية القادرة القوية الواعية العاملة»[(٢)].

---

(١) السنة الإلهية/ د. عبد الكريم زيدان، ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٢) لقاء المؤمنين/ عدنان النحوي، ٢/ ١١٧.

إن سنة التدافع تشير دائما وتؤكد باستمرار على أن الغلبة للإيمان وجنده وهذا ما تؤكده الآيات القرآنية:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩]

صور التدافع:

للتدافع صورة متعددة وقد أخذنا من هذه الصور ستة أنواع لانتشارها وكثرة استخدامها على مر العصور من قبل الدول أو التنظيمات.

١ - الحرب:

إن الحرب هي أداة من أدوات السياسة وهي «عمل من أعمال العنف يستهدف إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا» [(١)] .

من التعريف السابق يتبين أن الحرب ليست هدفاً لذاته وإنما هي أداة من أدوات تنفيذ السياسات وهي لغة حوار الإرادات وهدفها إخضاع وكسر إرادة الخصم ولا يشترط تدميره.

وتنقسم الحروب إلى ثلاثة أنواع رئيسية :

* **حروب كبيرة:** مثل الحربين العالميتين الأولى والثانية وهذه الحروب لها خصائص وتصوراتها .

(١) تطور العقائد والاستراتيجيات العسكرية/ لواء عبد الرحمن الشهري.

* **حروب متوسطة**: مثل حربي الخليج الأولى والثانية حيث تلتقي قوى عظمى بقوة صغيرة وتستخدم فيها الأسلحة التقليدية وما إلى ذلك ولكنها لا ترقى لمستوى الحروب العالمية .

* **حروب منخفضة الحدة**: وهي في مستوى أدق من هذه الحروب مثل فيتنام والصومال ولبنان وغيرها .

فكل نوع من هذه الحروب له خصائصه التي يجب أن تعرف لمن يديرون الصراع حتى على المستوى النظري.

٢- الانقلاب:

وهو عبارة عن عملية تتم داخل أجهزة السلطة حيث يقوم طرف من الأطراف داخل دائرة السلطة بإسقاط فريق العمل السابق والحلول مكانه. وهناك مجموعة من الأسئلة المتعلقة بهذا الشكل من أشكال التدافع ولابد أن نحيط بها ومن هذه الأسئلة.

ما هي الانقلابات؟ ما شروطها؟ ما الموانع التي تمنع حدوثها؟

ما هي العوامل التي تسرِّع من حدوثها؟ ما سلوك العمل الانقلابي؟

فمعرفة ما يخص الانقلابات مسألة مهمة جداً لتشكيل عقلية التدافع.

٣- الثورات:

والثورة حدث أشمل من الانقلاب ففي كل من الثورة والانقلاب يتغير نظام الحكم ولكن يصحب تغير نظام الحكم في الثورة تغيرات عميقة

في البني الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وتتأثر فيها أحوال المجتمع بوجه عام.

فالثورة لا تختص فقط بتغيير السلطة في الحكم ولكنها تشمل تغيير المنظومة الاجتماعية كاملة. فانقلاب حركة الضباط الأحرار في يوليو ١٩٥٢م لم يتحول إلى ما يسمى بالثورة علمياً إلا بعد أن مس جميع جوانب المجتمع المصري. فتحول اسمه من «انقلاب الضباط الأحرار» إلى «ثورة يوليو».

وهكذا فإن انتقال الفكرة من مجرد استبدال طغمة حاكمة بأخرى مع تغييرات حتمية نتيجة هذا الاستبدال تمس تغيير البني الاجتماعية في المجتمع سياسة واقتصاداً وشرائع يقال عنه ثورة وليس انقلاب. وحتى نستطيع إدارة الصراع لابد أن نكون على علم جيد بالثورات يجب أن نكون قادرين على الإجابة على الأسئلة التالية:

ما هي الثورة؟ ما شروطها؟ ما توابعها؟ ما معالجتها؟ ما هو سلوك الثورات عندما تحدث حتى يمكن التعامل معها عندما تحدث انفجارات؟ مَنْ أطرافها؟ هل الثورة تحدث بفعل القوة المعارضة أم تحدث بفعل القوة الحاكمة؟ ما دور الأطراف؟ ما دور كل من الشعب والجيش والقوى السياسية؟

فكل هذه القضايا يجب أن تؤخذ في الحسبان عندما تدرس هذه الظاهرة وعلى الدارس لسنة الله في التدافع أن يكون ملماً إلماماً عميقاً بهذا الموضوع.

٤- العمل السياسي أو العمل النضالي الدستوري:

ينبغي أن نكون على معرفة بهذا الشكل المهم من أشكال الصراع وعلينا الإلمام بالأمور التالية:

- مفهوم السياسة.
- الأدوات الأساسية لعملية التحليل السياسي والقدرة على التواصل مع المحللين السياسيين ومراكز الدراسات السياسية المتخصصة.
- الأدوات الأساسية المستخدمة في السياسة وتفرعاتها.
- أدوات المعارضة وتقنياتها المعاصرة المستخدمة من قبلها.
- معرفة خريطة القوة السياسية المختلفة وكيف تقوم هذه القوى؟ وكيف تعمل؟
- ماهية الدعاية السياسية وتقنياتها وأساليبها.

فإذا لم ندرك هذه الأمور ونمتلك تلك الأدوات الخاصة بالعمل السياسي فنحن غير مؤهلين للقيام به؛ لأن العمل السياسي ليس نزهة بل هو تدافع وصراع فيه منتصر ومهزوم.

٥- التفاوض

وهو من أهم أشكال عملية التدافع، إذ إن استخدامه في الصراع أمر حتمي في أي مرحلة من مراحل الصراع. ففي بعض مراحل الصراع يمتلك كل طرف من أطرافه درجة معينة من السلطة أو القوة أو النفوذ

ولكنه في الوقت نفسه ليس لديه كل السلطة أو النفوذ أو القوة الكاملة التي يستطيع بها إملاء إرادته وفرضها إجبارياً على الطرف الآخر ومن ثم يصبح التفاوض هو الأسلوب الوحيد المتاح أمام الأطراف التي لها علاقة بالصراع وتريد الوصول إلى حل ما. ونتيجة لحتمية استخدام هذا النوع في عملية التدافع فيجب علينا أن نلم بكافة دقائق وعناصر التفاوض، وعلينا أن نكون قادرين على الإجابة على الأسئلة التالية هل نستطيع تحديد موضوع التفاوض؟ كيف يتم اختيار الفريق التفاوضي وتدريبه وإعداده للقيام بالعملية التفاوضية؟ ما نوع التفاوض؟ ما هو توصيف الحالة التفاوضية؟ هل هي حالة مقايضة، أم تفاعل استراتيجي كامل؟

كيف تعد الهياكل التفاوضية أو الحزم التفاوضية؟ كيف تحدد الأطراف العلنية والخفية للعملية التفاوضية؟ ما هي الاستراتيجيات المستخدمة؟ سواء كانت الإقناع أو القهر أو التنازل أو التعاون الإيجابي أو التعاون السلبي؟ ما هي التقنيات المستخدمة في العملية التفاوضية؟

٦- حركة اللاعنف

إن الكفاح اللاعنيف هو أسلوب لحشد القوى في مواجهة الخصم الذي عادة ما يكون لديه تحديات إدارية واقتصادية وسياسية وبوليسية وعسكرية. وتستخدم القوة هنا للإشارة إلى كل مظاهر النفوذ ووسائل الضغط المستخدمة ضد الخصم لإقناعه بالتصرف على النحو الذي يريده

قادة حركة اللاعنف. فهو أسلوب يستخدم أدوات اجتماعية ونفسية واقتصادية وسياسية لممارسة الضغوط ويتضمن أكثر من مائتي طريقة مثل المقاطعات الاقتصادية والإضرابات وحتى إقامة حكومة الظل.

ولأهمية حركة اللاعنف في المسارات التغييرية **يجب أن نهتم بدراستها** وأن نكون قادرين على الإجابة على هذه الأسئلة:

ما هي حركة اللاعنف؟ ما أهدافها؟ ما آلياتها؟ ما أدواتها؟ ما شروطها؟ ما نماذجها؟ كيف تنجح؟ ومتى تفشل؟

إن المعرفة الدقيقة بهذه الأشكال الستة التي تدخل في العمل التدافعي أمر في غاية الأهمية وتدخل في باب الضروريات وليست من الحاجيات أو التحسينيات ومن يفتقدها فقد افتقد شرط النجاح. **إن هذه المسميات يجب** التدريب عليها تدريباً عاليا ومناقشتها مناقشة موسعة حتى تتكون رؤى كاملة حول البدائل المتاحة أمام أي حركة تغييرية يراد لها النجاح [1].

* * *

(١) القواعد الإستراتيجية في الصراع والتدافع الحضاري/ د.جاسم سلطان.

سنة التغيير

خلق الله الإنسان وميّزه بالعقل الذي جعله أهلاً للتكليف وجعل التغيير مرتبطاً بإراداته وجعله محور التغيير ووسيلته وهدفه في الوقت ذاته. إن مناهج التغيير يقاس نجاحها بمدى قدرتها على إطلاق مواهب الإنسان وطاقاته وملكاته وانسجامه مع الكون والحياة للوصول إلى البناء الحضاري المأمول.

إن اكتشاف دور الإنسان وفاعليته في منهج التغيير أصبح من الضرورات الملحة فالعقيدة الإسلامية جعلت الإنسان هو مدار التغيير ومحوره وأوكلت له هذه المهمة وكلفته بتحقيق الخلافة على هذه الأرض ولفتت نظره إلى كيفية التعامل مع الكون والحياة من حوله وكيف أنها جميعا مسخرة له كما أوكلت إليه إدارة الصراع في الحياة واستغلال ما على ظهر الأرض واستخراج ما في باطنها لإنتاج الحضارة واستعمار الأرض حملاً لأمانة الاستخلاف وتحقيقاً للعبودية التي من أجلها خلق. أما أنه خليفة في الأرض فبصريح قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥].

وأما أنه مكلف بإدارة الحركة وتحقيق الحضارة والعمران فبدليل قوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١] .

إن الله تبارك وتعالى أعطى للإنسان هذا الدور المبدع وأعطاه الحرية في الاختيار ورتب عليها الثواب والعقاب فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] .

وربط الله تغير الحال بإرادة الإنسان وحركته وتغيير ما في نفسه ذلك أن من سنن الله وقانونه في التغيير أن يبدأ من داخل الإنسان ويرتبط بإرادته. وهذا المعنى يتكرر في أكثر آيات التغيير سواء في التغيير إلى الأفضل أو إلى الأسوأ.

يقول تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١] .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣] .

وحياة الرسول ﷺ وسيرته العملية وحركة صحابته الكرام توضح هذه القضية بشكل جيد وتعكس فهمهم السليم للقرآن الكريم وإن قيام الرسول ﷺ بدعوته واستعماله للطاقات البشرية لأتباعه واستخدامه كل الوسائل والقواعد في بناء عالم الحضارة والعمران وتحمله أنواع العذاب

والجراح للانتصار على الأعداء لدليل على أن رسول الله ﷺ سلك طريق السنن الجارية ولم يقف عند انتظار السنن الخارقة. بل إن معجرة الرسول الحقيقية تكمن في تحقيق الإسلام من خلال عزمات الإنسان وإرادته واختياره ولذلك فإن أي محاولة للتغيير وإعادة البناء لابد وأن تتجه أولاً إلى الإنسان وإلى ما في النفس وعالم الأفكار فتعيد بناءها قبل بناء العمارات أو إنشاء المصانع وتعبيد الطرق حيث إن المشكلة الكبرى أن الكثير من مناهج التغيير تركزت في عالم الأشياء على حساب عالم الأفكار. لقد قضت سنة الله أن يكون الإنسان هو صانع التغيير في الحياة وأن إرادته هي الفاعل والمحرك وأن سنن الله وإرادته في التغيير تنطلق من خلال إرادة الإنسان. ويكفي للتأكد من أن التغيير سنة ماضية في الحياة بكل أبعادها أن نلقى نظرة على واقع البشر لمشاهدة مظاهر التغيير ولعلنا في هذا الوقت المتسارع الذي يطوى المسافات ويختزل الأزمان نسمع يومياً حديث الناس عن شعورهم بالتغيير سواء في المجالات الاقتصادية أو الأخلاقية أو الاجتماعية فهذا التغيير قائم ومشاهد أما اكتشاف أن هذا التغيير خاضع لسنن وقوانين لابد من إدراكها حتى يمكن التعامل معها والتحكم بنتائجها وأن لإرادة الإنسان فعلاً أساسياً فيها وأنها ليست من المصادفة أو الخوارق فهذا يرجع كشفه للإنسان حتى لا يصاب بالسلبية وحتى لا يمتلك إرادة التغيير وأمنياته ويفتقد الكيفية التي يغير من خلالها فتنتهي القضية إلى حيِّز التمني والرغبة حيث يقول الله عز وجل:

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ ﴾

[النساء:١٢٣].

إن من أكبر أنواع الظلم وأشد أنواع التخلف الحضاري ألا يستطيع الإنسان أن يرى العلاقة بينه وبين الكون فيسقط نفسه ولا يضعها في المكان الذي يمكنه فيه أن يقوم بتسخير الآفاق والأنفس ويحدث التغيير على أساس السنن المودعة فيهما «إنه لأمر مثير للعجب أن يعيش معظم المسلمين من بضعة قرون لا يعرفون عن الكون شيئاً يذكر وأن تكون علومه ثانوية في ثقافتهم الخاصة والعامة وأن يكون التعرف على أسراره وقواه شيئاً كماليا خفيف الوزن عند البعض وضرباً من اللغو والعبث عن البعض الآخر، فما الذي استحوذ على انتباههم من فنون المعرفة؟ كلاماً في دين الله لو عرفه سلفهم ما فتحوا بلدا ولا أنشئوا حضارة!! في الوقت الذي صدّ فيه المسلمون عن الدراسات الكونية أوغل آخرون في طريقها وحققوا مآرب رهيبة ثم طوعوّها لنصرة عقائد باطلة وفلسفات وضيعة. إن هذه القطيعة الموحشة بين الدين من ناحية وبين الكون والحياة من ناحية أخرى ينكرها الإسلام كل الإنكار ويطلب من عباد الله الصالحين مسلكاً يناقضها كل التناقض. إن دين الله لا يَقْدِر على حمله ولا على حمايته الفاشلون في مجالات الحضارة الإنسانية الذكية الثرثارون في عالم الغيب الصامتون في عالم الشهادة، والمسلم مطلوب منه السعي الدائم لتحصيل العلم النافع ليكون طليعة سباقة في كل ميدان كما يقول بن الجوزي «ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى

غاية ما يمكنه فلو كان يتصور للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض!!ولو كانت النبوة تُحصَّل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض»[1] إن العجز كل العجز أن يتوهم الإنسان المسلم أن الظواهر الاجتماعية لا تخضع لقوانين وبذلك يلغى دوره ويطفئ فاعليته. والتغيير وإن كان ينصَبُّ على الفرد أو على الذات بالمعنى الفردي إلا أنه كسنة اجتماعية — وليس سنة فردية-لا يؤتى ثماره إلا إذا استوعبته الأمة والقوم فالآيات تربط التغيير بتغيير ما (بقوم) وليس بفرد واحد. ولذلك جعل الإسلام مسئولية التغيير الاجتماعي جماعية وجعل مسئولية السقوط جماعية أيضا فقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥].

وأجاب الرسول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سألته:

أنهلك وفينا الصالحون؟ قائلاً: نعم إذا كَثُر الخبث.

فالتغيير فعل اجتماعي في ضوء السنن التي أشار إليها الله سبحانه في الكتاب والسنة وطلب من أجلها السير في الأرض والنظر ودراسة التاريخ.

ورغم أن التغيير يبدأ من داخل النفس ويبدأ من عند الفرد لكنه في نهاية المطاف إنجاز أمة وهو رغبة دائمة في التجديد والارتقاء وإعلاء القيم

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية/ الشيخ محمد الغزالي ص ٢٤- ٢٨ بتصرف.

وتقويم للمجتمع بشرع الله. إن سنة التغيير التي تبدأ من عالم الأفكار وما في الأنفس يمتد أثرها وعواقبها لتتحقق في السنة المادية حتى لنكاد نقول: إن الكثير من السنن المادية يتوقف تحريكها ونفاذها على فقه سنن ما بالأنفس فعلى سبيل المثال فإن:

* التوبة والاستغفار تكون مقدمة وسبباً لنزول الغيث وسبيلاً لأنواع النعم من الله فيقول تعالى:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح].

* الإعراض عن ذكر الله يستوجب المعيشة الضنك.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤].

* والإيمان الملتزم الفاعل مقدمة لبركات السماء والأرض.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف].

* والفسق والترف مقدمة وسبب للدمار وخراب العمران.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا

تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء].

* والظلم وغياب العدل طريق لانقراض الأمم.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف].

ومن المشكلات والعوائق أمام التغيير التوهم بأن المبادئ هي البرامج والأهداف هي الخطط والوسائل وأن مجرد الاحتفاظ بالقيم في الكتاب والسنة وحفظها كاف لإحداث التغيير دون إيجاد المناهج لكيفية التعامل معها.

إن مخاطبة الناس بالقيم وبما يجب أن يكون يمكن أن يحقق شيئاً من التوهج الروحي والرغبة في الترقي والحنين إلى مجتمع خير القرون لكن ذلك وإن كان له أهميته لا يلبث أن ينتهي ويتبخر لأننا لم نضع له الأوعية والبرامج والخطط التي تأخذ بيد الناس للوصول بهم إلى ما يجب أن يكون ليتم التغيير المأمول. فالمطلوب الآن الانتقال من الحماس إلى الاختصاص وإنزال القيم على أرض الواقع واكتشاف السنن وتسخيرها.

إن الأمة المسلمة تمتلك إمكانية التغيير بسبب اصطفائها لوراثة الكتاب بقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر:٣٢] فهي تمتلك المصدر والنص السليم لمعارف الوحي الذي يمثل الشرعة والمنهاج ويبين المسالك ومعالم الطريق إلى جانب النموذج التطبيقي لرسول

الله ﷺ وأسلوبه في السيرة النبوية التي تشكل وسيلة الإيضاح المُعِينة لكيفية التعامل مع قيم الكتاب والسنة في كل زمان ومكان يضاف إلى ذلك المخزون التاريخي من تجارب النبوات السابقة وأحوال الأمم وكيفية سقوطها أو نهوضها. إن سلامة الأفكار أو المنظومة الفكرية هي أساس التغيير لذلك فإن الله تعالى اعتبر الجهاد بالقرآن وبناء الشوكة الفكرية هو أعلى أنواع الجهاد وأن التحول الإسلامي النموذجي تم بالقرآن (الفكرة) فقال تعالى:

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان].

وقد كان المشركون يحاولون اللغو في القرآن والتشويش عليه حتى لا يأسر قلوبهم ويحول عقولهم وبالتالي يغيروا واقعهم قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾

[فُصِّلَت].

ولذلك فإن الصور المزيفة للتغيير والتحويل حتى ولو وصلت إلى السلطة السياسية والدولة دون امتلاك المقدمات الفكرية تبقى معزولة عن ضمير الأمة وعاجزة عن التغيير مهما امتد بها الزمن. إن الشعوب لا تتغير أحوالها إلى الأفضل إلا إذا حدث إصلاح وتغيير فيها ومن قبلها في حكامها ومثال ذلك من واقع التاريخ ما حدث في العالم الإسلامي في نموذجين متتالين:

الأول: الاجتياح الصليبي للمشرق العربي.

الثاني: اجتياح التتار للعالم مشرقه وغربه.

* فقد حدث أن اجتاحت الحملة الصليبية الثانية إقليم الرها (شمال العراق) وإنطاكية وطرابلس وسواحل الشام على البحر المتوسط وسقطت القدس عام ١٠٩٩م وبقيت تحت الاحتلال تسعين سنة كاملة حتى حدثت موقعة حطين ١١٨٧م والتي مهدت لتحرير بيت المقدس.

كان اجتياح الصليبين للشرق الإسلامي في فترة من فترات الضعف والتفكك فقد كان هناك خليفتان أحدهما في بغداد (الخليفة العباسي) والثاني في القاهرة (الخليفة الفاطمي) وانفصلت كثير من الأقاليم عن سلطان الخليفة وتمسك كل أمير بها تحت يده. في ظل هذه الأجواء استولى الصليبيون على كثير من الإمارات الإسلامية وقتلوا مئات الألوف من المسلمين حتى صارت الدماء إلى ركب الخيل.

وعندما جاء «عماد الدين زنكي» وابنه البطل «نور الدين محمود» الذي لقبه العلماء بسادس الراشدين لورعه وتقواه قام بإعداد الشعب وحث الخطباء على المنابر على شحذ همم الناس وقام بتوحيد الإمارات الإسلامية (الشام ومصر) وجهز جيشاً بقيادة «أسد الدين شيركوه» للتخلص النهائي من الفاطميين بمصر، حيث اصطحب معه ابن أخيه «صلاح الدين الأيوبي» الذي نجح في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر (٥٦٧هـ)

وتولى أمرها بعد وفاة عمه وعاد الأمر الشرعي لدولة الإسلام بوجود خليفة واحد.

وعادت مصر – العاصمة الفاطمية الأولى- عاصمة كبرى للعباسيين تحت قيادة الدولة الأيوبية وقائدها صلاح الدين الأيوبي.

كان أمام صلاح الدين تحديات داخلية في مصر حيث الآثار الفكرية التي خلفتها الدولة الفاطمية تحتاج إلى علاج طويل. وكان أمام صلاح الدين خلل اقتصادي منذ أيام المجاعة العظمى... أيام (المستنصر) وما جر على مصر والعالم الإسلامي الحكم الفاطمي من ويلات وتسلط الوزراء الخونة أمثال شاور ودرغام.

وكان بإمكان صلاح الدين أن يعلن ثورة اقتصادية واجتماعية ويلهي الناس عن حقيقة الخطر الصليبي الذي يواجهونه وينادى بالسلام وتحقيق الاستقرار !! لكن صلاح الدين لم يكن هذا القائد المخادع بحيث يشغل الناس لحساب الأعداء عن معركتهم الحقيقية بمعارك جانبيه. وكان بإمكان صلاح الدين أن يبحث عن «اتفاقية سلام» مع الصليبين ويرضى بأي حل سلمى استسلامي حتى تنتهي فترة تثبيته في الحكم ثم يعلن للناس أن الحكام السابقين الفاطميين هم الذين يتحملون المسئولية وأنه جاء إلى الحكم بعد فوات الأوان وبالتالي يخضع العالم الإسلامي لهذا الغزو الخبيث!!

وفى مواجهة غزو صليبي عالمي أعلن صلاح الدين ثورة إسلامية عالمية وأصبح هو رمزها ومحورها وكان هذا هو الطريق الوحيد ولا يزال هو الطريق.

لقد مكث صلاح الدين خمسة عشر عاماً يبذل من الجهد والعمل الدؤوب والاستعداد حتى استطاع توحيد مصر والشام مرة أخرى وعندها بلغ من القوة والاستعداد ما مكنه من مواجهة الصليبين والانتصار عليهم في موقعة حطين ١١٨٧م (٥٨٣هـ) والتي كانت البداية لفتح بيت المقدس بعد ذلك وكان من جراء ذلك انتشار روح الجهاد بمصر التي انتقلت من الخمول إلى الجد والحركة واستطاع الشعب المصري بعد ذلك أن يصد الحملة الصليبية بقيادة «لويس التاسع» بل واستطاعوا أن يأسروه ويودعوه سجيناً في دار بن لقمان بالمنصورة.

* وفى مصر عندما اجتاح التتار العالم شرقه وغربه ثم اجتاحوا الخلافة الإسلامية في بغداد وقتلوا الخليفة ولم يتركوا فيها أحياء وسالت الدماء أنهارا واسود نهر دجلة من كثرة ما ألقي فيه من كتب الحضارة حيث قاموا بإلقاء مكتبة بغداد في النهر والتي سال مدادها حتى أحالت ماء النهر أسوداً حالكاً ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الشام وعسكروا في فلسطين وبعثوا برسالة إلى مصر لدفعها للاستسلام قبل الهجوم عليها. كانت رسالة «هولاكو» قائد التتار المنتصر الذي اجتاح العالم تخلع القلوب حيث جاء فيها:

«من ملك الملـوك شرقـاً وغربـاً الملـك المظفـر «هولاكـو» إلى «قطـز» سلطان مصر لقد علمتم أننا فتحنا البلاد وقتلنا العباد وإن لكـم فـيها فعلنـا مزدجر ومعتبر فسيوفنا سوابق

وخيولنا لواحق

وعددنا كالرمال

وقلوبنا كالجبال

فإذا جاءتك رسالتي هذه فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب».

كانت انتصارات «هولاكو» ومذابحه وأهواله تسبقه إلى مـصر ولكـن «قطز» بفقه الحاكم المسلم قام بجمع العلماء وعلى رأسـهم «العـز بـن عبـد السلام» الملقب بسلطان العلماء ليشيروا عليه، فأشـاروا عليـه بقتـل رسـل هولاكو وتعليق رؤوسهم على باب زويله في رسالة تحدى لهولاكو ثم طلب إعلان النفير العام والجهاد وتعزيز القوة العسكرية للجيش وجمع الأمـوال لشراء السلاح والعتاد على أن تجمع أولاً من الأمراء والمماليك ثم من عامـة الشعب بعد ذلك. وأمر كل خطباء المساجد في مصر بقراءة سـورتي التوبـة والأنفال حتى قال المؤرخون: إن شوارع مصر وأزقتها وحواريها وأسواقها في تلك الفترة كانت تعج بالنساء والأطفال الذين يرددون التوبة والأنفـال وهكذا تغير حال مصر من الخمول والسكون إلى الحركة والنفرة للجهاد.

• ولم ينتظر «قطز» حتى يأتيه هولاكو إنما خـرج بجيـشه حتـى قابلـه في

«عين جالوت» حيث دارت المعركة الفاصلة والتي كان النصر فيها حليف قطز. وهكذا كانت القيادة القدوة والشعب المجاهد أهم أسباب التغيير في مصر.

* * *

سنَّةُ التمكين

التمكين هو السعي الجاد من أجل رجوع الأمة إلى ما كانت عليه من السلطة والنفوذ والمكانة في دنيا الناس.

«والتمكين هو الهدف الأكبر لكل مفردات العمل من أجل الإسلام فالدعوة بكل مراجعها وأهدافها ووسائلها والحركة وكل ما يتصل بها من جهود وأعمال والتنظيم وما يستهدفه في الدعوة والحركة والتربية بكل أبعادها وأنواعها وأهدافها ووسائلها بحيث لا يختلف على ذلك الهدف الأكبر أحد من العاملين من أجل الإسلام، كل العاملين -مهما اختلفت برامجهم بشرط أن تكون هذه البرامج والخطط نابعة من القرآن والسنة وليس فيها شيء مما يغضب الله- لا يستطيعون أن يختلفوا في أن التمكين لدين الله في الأرض هو الهدف الأكبر في كل عمل إسلامي»(١).

«حتى يكون سلطان الدين الإسلامي على كل دين ونظام والحكم بهذا الدين على البشرية كلها وهذا التمكين يسبقه الاستخلاف والملك والسلطان ويعقبه أمن بعد خوف»(٢) كما أن التمكين هو «دراسة الأسباب

(١) فقه المسئولية / د. على عبد الحليم، ص ٣٥٨.

(٢) فقه الدعوة/ د. عبد الحليم، ص ٧١٣، ٧١٤.

التي أدت إلى زوال التمكين عن الأمة الإسلامية والمقومات التي ترجع الأمة إلى التمكين وكذلك المبشرات على هذا الطريق وذلك كله في ضوء القرآن الكريم مع الاستعانة بأحاديث الرسول العظيم ﷺ»[1].

إن مرحلة التمكين هي ذروة العمل الإسلامي المنظم وهي تمثل الثمرة الناضجة إذا مثَّلت المراحل التي سبقتها التربة الصالحة والبذرة الصالحة والتعهد والرعاية. ومرحلة التمكين في الدعوة إلى الله تعنى أن الله يمكن لدينه في الأرض عن طريق المؤمنين الذين يعملون الصالحات وأن هذا التمكين يسبقه الاستخلاف والملك والسلطان ويعقبه أمن بعد خوف كما أن الوصول إلى التمكين يكون بعد تحقيق شروطه من إيمان وعمل صالح وتحقيق العبودية ومحاربة الشرك وتقوى الله كما أن لاستمراره شروطاً منها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول يقول تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور].

وستظل الطاعة للرسول ﷺ وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مصاحبة للتمكين لا تنفك عنه ولا ينفك عنها يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى

(١) التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن/ محمد السيد يوسف، ص ١٣.

ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

يقول ابن كثير في تفسير آية الاستخلاف: «هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاة عليهم وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر وإسكندرية وهو المقوقس وملوك عُمان والنجاشي ملك الحبشة رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلمَّ شعث ما وهي بعد موته ﷺ وأخذ جزيرة العرب ومهدها وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرفاً منها وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه إلى أرض الشام وثالث صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى مصر ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصري ودمشق واستخلف الصديق عمر الفاروق وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها، وأكثر أقليم فارس، وكُسِر كسرى، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية،

وأنفق أموالهما في سبيل الله ثم كانت دولة عثمان بن عفان — فقد امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الصين وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ويبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها فها نحن نتقلب فيها وعدنا الله ورسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا» .

وهذا الوعد الإلهي للمؤمنين وعد دائم ومستمر وما تحقق في عهد الخلفاء الراشدين من نصر وتمكين يمكن أن يتحقق لمن بعدهم فإن وعد الله تعالى لا يتخلف قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف].

ووعد الله هنا مشروط بالإيمان وعمل الصالحات وعبادة الله وحده وعدم الإشراك به قال تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥] يقول الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله: «إن الآية الكريمة توضح النتائج التي تترتب على انتصار المؤمنين فهي ليست استعمار الشعوب ولا أكل خيراتها ولا انتهاب ثرواتها ولا إذلال كرامتها وإنما هي نتائج لمصلحة الإنسانية ولفوائد المجتمعات فهي:

* لنشر السمو الروحي في العالم عن طريق العبادة (أقاموا الصلاة).

* لنشر العدالة الاجتماعية بين الشعوب عن طريق الزكاة (وآتوا الزكاة).

* ولتحقيق التعاون على خير المجتمع وكرامته ورقيه (وأمروا بالمعروف).

* والتعاون على مكافحة الشر والجريمة والفساد (ونهوا عن المنكر).

تلك هي النتائج التي تترتب على انتصار المؤمنين في قتال أعدائهم من إقامة دولة إسلامية تعمل على سمو الروح وتكافل المجتمع ورقى الإنسان على طريق الخير دفع انحداره في طريق الشر فأية غاية إنسانية أنبل من هذه الغاية التي شرع الله من أجلها القتال في الإسلام»[1].

سنة الله تعالى في نصر وتمكين المؤمنين:

أ- قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

ب- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات].

جاء في تفسير الزمخشري[2] والمراد الوعد بعلوهم على عدوهم في مقام

(١) السيرة النبوية، د. مصطفى السباعي، ص١٠٩-١١٠ .

(٢) تفسير الزمخشري ج٤، ص٦٧.

الحِجاج وملاحم القتال في الدنيا وعلوهم عليهم في الآخرة.

جـ- وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

يقول ابن كثير: «أي حكم الله وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يُبدل بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة»(١).

د- وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

يقول بن كثير في تفسيرها «وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم».

و- وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم].

جاء في تفسير الألوسي لها: «وظاهر الآية أن هذا النصر في الدنيا وأنه عام لجميع المؤمنين فيشمل من بعد الرسل من الأمة»(٢).

التمكين والأخذ بالأسباب:

ترتبط سنة النصر والتمكين ارتباطاً وثيقاً بسنة التغيير والأخذ

---

(١) تفسيرابن كثير، ج٤ ص٢٢٩ .

(٢) تفسير الألوسي، ج ٢١ ص ٥٢.

بالأسباب فالتمكين ليس كما يظن البعض أنه هبة أو منحة من الله للمؤمنين دون بذل للثمن ودون أخذ بالأسباب إنما هو منحة من الله للمؤمنين بالفعل ولكن لمن يستحقها فعندما يقول الله عز وجل في سورة الأنفال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فإنه قد زيَّل الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي يضع الشيء في موضعه فلا يهب النصر للكسالى والضعفاء وفاقدي الهمة والقاعدين. وعندما يقول الله عز وجل في سورة الصف: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ [الصف].

فإنه يتبعه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)﴾ [الصف].

وفى القرآن الكريم أدلة كثيرة تؤكد أن النصر والتمكين لن يكون إلا على أيدي رجال مؤمنين يبذلون العرق والدماء ويعدون العُـدَّة ويأخذون بكل أسباب القوة والمنعة.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

وفى غزوة بدر تمنى المسلمون الغنيمة الباردة وهي (القافلة) ولكن الله أراد لهم ذات الشوكة وهي (الحرب).

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ

ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ [الأنفال].

ولقد قدّر الله سبحانه وتعالى لدينه أن ينتصر وللمسلمين أن يمكنوا وللمشركين أن ينهزموا ومع ذلك قال لهم:

﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ [محمد:٤].

وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد:٧].

فلابد إذن من اتخاذ أسباب للنصر والتمكين وإن كان ذلك قدراً مقدوراً من عند الله. وليس الله عاجزا –سبحانه وتعالى– عن نصرة الحق بغير الأدوات البشرية وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ولكن هكذا اقتضت مشيئته وهكذا تجرى سننه. ورسول الله ﷺ وهو أفضل المتوكلين كان أوعى الناس لهذه السنة الربانية فكان وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب ولا يترك شيئاً يسير جزافاً والمتتبع للسيرة النبوية يلمس ذلك تماماً ففى الهجرة –على سبيل المثال– لم يترك رسول الله أمراً من الأمور إلا أعدّ له خطته على نحو يستوعب كل الطاقات والوسائل «فقد أعد النبى ﷺ الرواحل والدليل واختار الرفيق والمكان الذي سيتوارى فيه هو وصحبه حتى يهدأ الطلب وتفتر الحماسة وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذه من الحذر والكتمان والسرية

وترك للإرادة الإلهية بعد ذلك ما لا حيلة له فيه»[1] وكذلك الأمر في كل غزوات الرسول من بدر إلى أحد والأحزاب..... إلخ نعم لابد من بذل الجهد لأن الأخذ بالأسباب والكدح للحصول على ما يرغب الإنسان في تحقيقه هو ذاته من سنن الله تعالى وكذلك بالنسبة لأمر الآخرة لابد من الأخذ بالأسباب حتى يصل الإنسان إلى ما يرجو من رحمة الله قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

لقد كان في وجدان الأمة الإسلامية في عصرها الزاهر أن إيمانها بقدرة الله تعالى المطلقة وقضائه وقدره لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب ولقد أصاب المسلمين في أُحُد ما أصابهم لأنهم لم يستجمعوا المقدمات التي تنتج النصر وعصوا أمر الرسول ﷺ ولم يكن المشركون أولى بالله منهم ولكن هذه سنة الله فالله تعالى قد وضع للنصر قوانين (سنن) كثيرة وأوجب على عباده رعايتها فمن أبى فلا يلومن إلا نفسه، وإن تأخر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض لم يكن ظلماً وقع بهم بل كان نتيجة طبيعية لقوم نسوا رسالتهم وتخلوا عنها وحطوا مكانتها في مجال العلم والعمل على السواء وأهملوا السنن الربانية وظنوا أن التمكين قد يكون بالأماني والأحلام ولكن هيهات هيهات بل هذا من صميم العدل الإلهي فقد قال

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية/ د. يوسف القرضاوي، ص ١٧، ١٨.

تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[آل عمران:١٨٢].

إن الله سبحانه وتعالى جعل التمكين في الحياة يمضى بالجهد البشرى وبالطاقة البشرية على سنن ربانية ثابتة وقوانين لا تتبدل ولا تتحول فمن يقدم الجهد الصادق ويخضع لسنن الحياة يصل على قدر جهده وبذله وعلى قدر سعيه وعطائه. إنها السنة التي أرادها الله في هذه الحياة وهي مشيئته وإراداته.

التمكين وسنة الابتلاء:

يرتبط الابتلاء بالتمكين ارتباطاً وثيقاً فلقد جرت سنة الله تعالى على أن يُبتلى المؤمنون ويُختبروا ليمِّحص إيمانهم ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء أن يُمكَّن أو يُبْتلى؟ فقال: لا يمُكَّن حتى يبتلى فإن الله تعالى ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مَكَّنَهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة (الفوائد لابن القيم)، «وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكن ورسوخ وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار، فلو أن قائداً أراد إعداد جنده للفوز في معركة حاسمة أيكون من الرحمة بهم أن يخفف عنهم التدريب ويهون عليهم الإعداد؟ أم أن الرحمة الحقيقية أن

يشدِّد عليهم في التدريب على قدر ما تقتضيه المعركة الحاسمة التي يعدهم من أجلها ؟

والمؤمنون هم جند الله والمعركة التي يعدهم من أجلها هي المعركة العظمى معركة الحق والباطل والنتيجة المطلوبة من المعركة ليس مجرد النصر وإنما هي بعد ذلك إقرار المنهج الرباني في الأرض بكل المعاني والقيم التي يحملها ذلك المنهج وهي الأمانة التي تعّرض لحملها الإنسان. وحمل الأمانة لا يصلح له كل الناس إنما يحتاج لقوم مختارين يُعدون إعداداً خاصاً ليحسنوا القيام به، ولقد بيّن الله هذا الأمر للأمة الإسلامية حتى تكون على بينة من طريقها ورسالتها وطبيعة هذا الطريق وتلك الرسالة، فيقول تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ [البقرة:١٥٥].

ويقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة].

ويقول تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٨٦]

وهذه سنة الله تعالى في العقائد والدعوات لابد من بلاء ولابد من أذى في الأموال والأنفس ولابد من صبر ومقاومة وعزم»[(١)].

(١) حول التفسير الإسلامي للتاريخ/ محمد قطب، ص ١١١، ١١٢.

إنه الطريق إلى الجنة وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات كما أخبر النبي ﷺ ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الأجيال التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية للأمة الإسلامية وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف والمعرفة الحقيقية للناس وحقيقة الحياة وذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً وأقواهم شكيمة فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها والصبر عليها فهم عليها مؤتمنون. إن البلاء مكمِّل لحقيقة الإيمان لأن الإيمان أمانة الله تعالى في الأرض وهذه الأمانة لا يحملها إلا من هم أهل لها وفيهم قدرة على حملها وفى قلوبهم تجرد لها وإخلاص والذين يؤثرونها على الراحة والدعة وعلى الأمن والسلامة وعلى كل صنوف المتاع والأغراء. وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته وعلى حقيقة غايته ثم تتعرف الجماعة على حقيقة اللبنات التي تتألف منها ومدى تماسك هذه اللبنات في ساعة الشدّة وفى هذا يقول تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت].

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر وجهد يحتاج إلى احتمال فلا يكفى أن يقول الناس آمنا حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا ويخرجوا من الفتنة صافية

عناصرهم خالصة قلوبهم كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به حتى يصبح خالصاً ثميناً رفيعاً. وكذلك تصنع الفتنة في قلوب المؤمنين حين تصهرهم بنار الابتلاء فتخرج من نفوسهم ما قد يكون فيها من خبث وشهوات وأهواء حتى يكونوا خالصين لله متجردين له صالحين لحمل الأمانة التي أناطها الله بهم. إن سنة الابتلاء جارية في الأمم والدول والشعوب والمجتمعات والأمة الإسلامية أمة من الأمم فسنة الله تعالى فيها جارية لا تتبدل ولا تتغير فالابتلاء هو سنة الله العامة في الحياة والأحياء وسنته تعالى في الرسل والرسالات ورسول الله ليس بدعاً من الرسل فكان لابد أن تجرى عليه سنة الابتلاء كما جرت على إخوانه المرسلين ومع ما له ﷺ من عظيم القدر وعلو الشرف إلا أنه قد حظي من البلاء بالحمل الثقيل والعناء الطويل وتعرض الصحابة الكرام للبلاء بما تنوء به الرواسي الشامخات فتذكر كتب السيرة أن خبَّاب جاء رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة في ظل الكعبة فقال له: يا رسول الله ألا أن تدعو لنا ألا تستنصر لنا، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ وقام وقال له: «**والله لقد كان يؤتى بالرجل فيمن قبلكم ويحفر له الحفرة ثم يشق نصفين بالمنشار فما يصرفه ذلك عند دينه وكان يمشّط بأمشاط من حديد ما بين العظم واللحم فما يصرفه ذلك عن دينه والله ليتمَّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ولا يخشى إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون**».

وهكذا تمر المحن والابتلاءات على الأفراد والجماعات لتصقل العاملين في

ساحة العمل الإسلامي وتمضي هذه السنة في كافة الأزمنة والأمكنة إلى عصرنا الحاضر ويتعرض الدعاة إلى البلاء والمحن ويمضون في طريقهم المرسوم باستعلاء إيماني عظيم لا يبالون غير نصرة دينهم ورفع كلمة الله في الأرض.

السنة النبوية تبشّر بالنصر والتمكين للإسلام:

«وهذه المبشرات النبوية قد حفلت بهادواوين الحديث الشريف وغيرها من المصنفات وكل هذه المبشرات إخبار بالتمكين لدين الله وأن الغد له ولأمته فقد بشرت أحاديث الرسول بأن الإسلام سينتشر في العالم كله وأكدَّ هذه البشارة ما رواه المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولاوبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل**»(١). ومن مبشرات التمكين أيضا عودة الإسلام إلى أوربا وفتح رومية وأكدّ هذه البشارة ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي قبيل قال: [كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسُئل: أي المدينتن تفتح أولاً القسطنطنية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق قال: فأخرج منه كتاباً قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ فقال: «**مدينه هرقل تفتح أولاً**»](٢) ورومية هي روما عاصمة

---

(١) رواه أحمد والطبراني وابن حبان والحاكم، ومعناه دخول هذا الدين الحواضر والبوادي، فالحواضر التي بيوتها من مدر (حجر)، والبوادى التي بيوتها من بر وشعر.

(٢) **هرقل**: هو الإمبراطور الذي كان يحكم الدولة البيزنطية في عهد البعثة المحمدية.

إيطاليا الآن والقسطنطينية هي استانبول الآن وقد تحقق فتحها على يد محمد الفاتح ١٤٥٣م وبقى الجزء الثاني من البشرى: فتح رومية وبه يدخل الإسلام أوربا مرة أخرى بعد أن طرد منها مرتين مرة من الأندلس ومرة من البلقان. وظني أن هذا الفتح سيكون بالقلم واللسان لا بالسيف والسنان وأن العالم سيفتح ذراعية وصدره للإسلام بعد أن تشقيه الفلسفات المادية (الأيديولوجيات) الوضعية ويتطلع إلى مدد السماء وهدى الله فلا يجد إلا الإسلام طوقاً للنجاة.

والفتح السلمي له أصل في الإسلام فقد سمى الله تعالى صلح الحديبية فتحاً بل «فتحاً مبيناً» وأنزل في ذلك سورة (الفتح) وفيها يقول سبحانه: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ [الفتح].

وسأل الصحابة رسول الله ﷺ: أهو فتح يا رسول الله؟ فقال ﷺ: نعم هو فتح.

عودة الخلافة على منهاج النبوة:

ومن هذه المبشرات: ما رواه حذيفة بن اليمان عنه ﷺ قال: [**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا**

شاء أن يرفعها ثم تكون خلافه على منهاج النبوة]. ثم سكت[1].

والملك العاض- وفي رواية: العضوض- هو الذي يصيب الناس فيه عسف وظلم كأن له أنياباً تعض. أما ملك الجبرية فهو القائم على الجبروت والطغيان وأشبه بالحكم العسكري المستبد في عصرنا فهذا الحديث يبشر بانقشاع عهود الاستبداد والظلم والطغيان وعودة الخلافة الراشدة المتبعة لمنهاج النبوة في إقامة العدل والشورى ورعاية حدود الله وحقوق العباد»[2].

وبعد فإن وصول الأمة الإسلامية في هذا الزمان إلى التمكين ليس بالأمر السهل ولكنه كذلك ليس بالأمر المستحيل إذ على الرغم من التضييق الشديد والحرب الضروس التي تشن على الإسلام والمسلمين إلا أننا نرى أن التمكين لدين الله أصبح قاب قوسين أو أدنى من ذلك ومهما رأى الأعداء أن التمكين للإسلام بعيد يشبه المستحيل فإن المسلم واثق بوعد الله أن الأرض يرثها عباده الصالحون وهذا ليس من باب الأحلام والتمنيات ولكن من باب الثقة في الله تعالى واليقين بوعده.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق:٣].

* * *

(١) رواه أحمد والطبراني ببعضه في الأوسط ورجاله ثقات.

(٢) المبشرات بانتصار الإسلام/ د. يوسف القرضاوى، ص ٣٤.

المراجع

١- السنة الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات، د. عبد الكريم زيدان.

٢- رؤية في منهجية التغير، عمر عبيد حسنة.

٣- التغيير على منهاج النبوة ، جمعة أمين.

٤- سقوط أمريكا والبديل الإسلامي، فتحي شهاب الدين.

٥- فقه التمكين، د. على الصلابي.

٦- صراع الحضارات، صموئيل هنتنجتون.

٧- ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي .

٨- علل وأدوية، محمد الغزالي.

٩- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، محمد الغزالي.

١٠- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي.

١١- لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، شكيب أرسلان.

١٢- فقه المسئولية ، د.على عبد الحليم .

١٣- فقه الدعوة إلى الله، د.على عبد الحليم .

١٤ - التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن، محمد السيد يوسف.

١٥ - السيرة النبوية، د. مصطفى السباعي.

١٦ - أولويات الحركة الإسلامية، د. يوسف القرضاوي.

١٧ - المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي.

١٨ - حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب.

١٩ - تنوير المقباس من تفسير ابن عباس للفيروزآبادي.

٢٠ - تفسير ابن كثير.

٢١ - تفسير الزمخشري.

٢٢ - تفسير الألوسي.

٢٣ - تفسير المنار، رشيد رضا.

٢٤ - في ظلال القرآن، سيد قطب.

٢٥ - الوسيط في الأدب العربي، الشيخ أحمد السكندري، الشيخ مصطفى عناني.

٢٦ - لسان العرب لابن منظور.

٢٧ - الصفحات الأخيرة من حضارتنا، د. عبد الحليم عويس.

٢٨ - لقاء المؤمنين، عدنان النحوي.

٢٩- زوال إسرائيل حتمية قرآنية، سعد التميمي.
٣٠- الحضارة الإنسانية في القرآن ، محمد سعيد البوطي.
٣١- ميلاد مجتمع، مالك بن نبي .
٣٢- شروط النهضة ، مالك بن نبي.
٣٣- مقدمة ابن خلدون .
٣٤- أفول الغرب ، شبنجلر.
٣٥- التاريخ والمؤرخون، حسين مؤنس.
٣٦- الجامعة الإسلامية، موفق بهجت المرجه.
٣٧- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ، محمد هيشور .

* * *

الفهرس

الموضوع الصفحة

* * *